عنوان المحاضرة: ممالك الأهالي (الليبيون): النوميديتين وموريطانيا:

أسامة بقار-جامعة محمد خيضر-بسكرة-

محاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية تاريخ، الجزائر في 2020/04/19.

1-شجرة نسب (arbre généalogique) الملوك:

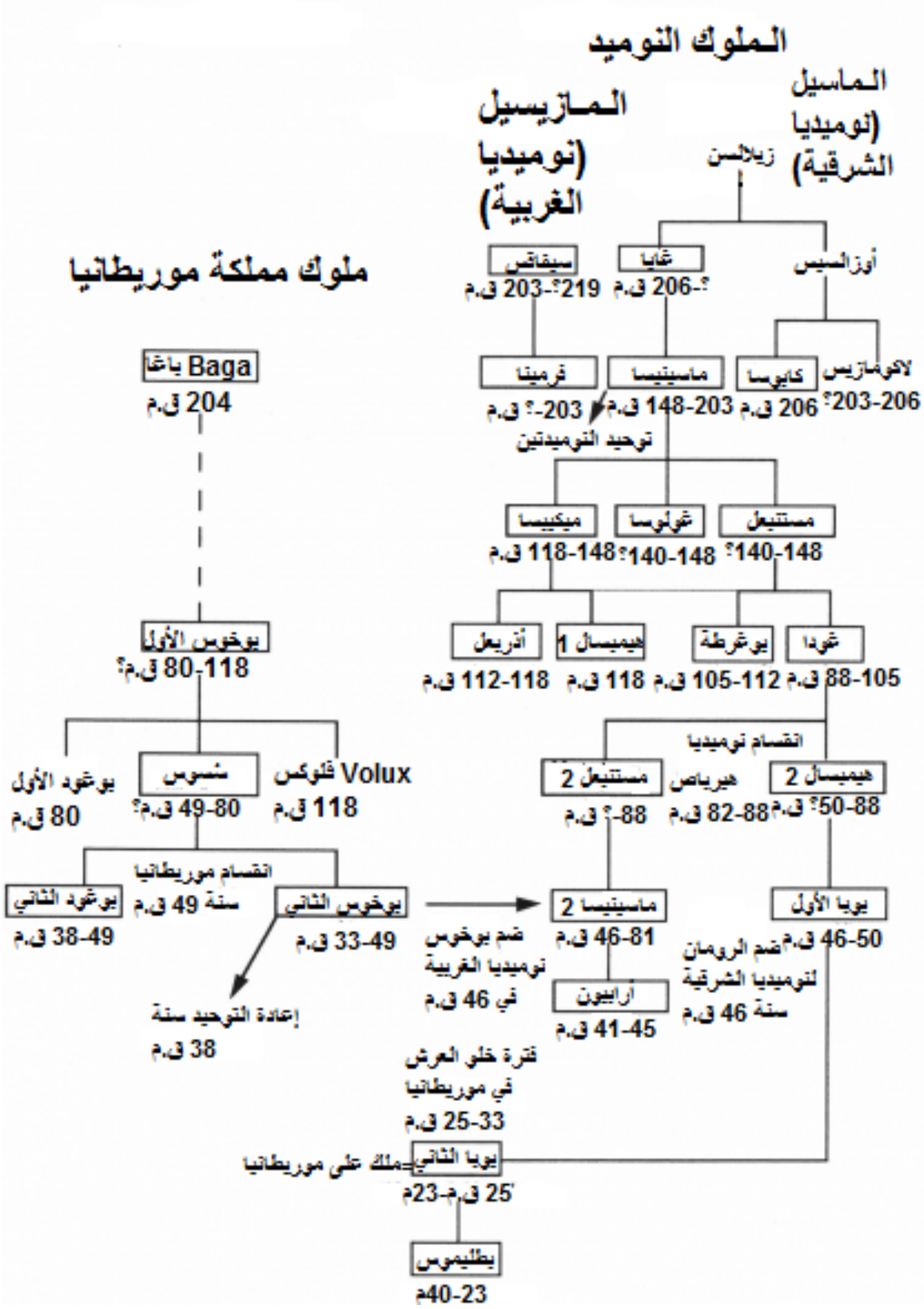

2-حول أسباب تأخر ظهورها:

يؤكد لنا علم الآثار أكثر من النصوص التي لا تقدم سوى أسماء قبائل وشعوب أن السكان المحليون المعروفين بتسمية الليبيون لم يعرفوا الوحدة السياسية والثقافية سواء خلال الفترة الفجر التاريخية (protohistorique) ولا الفترة القديمة، وهذا بالتأكيد نتيجة تأخر ظهور الكتابة وكيانات سياسية تخضع القبائل وتفرض منظومة سياسية واجتماعية، لهذا راح المؤرخون يعتبرون أن القدوم الفينيقي للمنطقة مثّل بداية التاريخ المغاربي، في حين مثلت الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م) بداية التاريخ عند الليبيون (النوميديون والموريون) لأنه منذ ذلك الحين بدأت المصادر تتكلم عنهم، في هذا الصدد يقول "كامبس": "**الحقيقة أن الفينيقيون هم من حملوا إلى البربر جوهر الحضارة (يقصد الكتابة)، وكان تدخلهم وحده هو الذي منح لإفريقيا-بلاد المغرب-الحياة الحضرية التي لا حضارة حقيقية دونها. وينبغي الإقرار أن إفريقيا شملتها بالكامل هذه الحضارة دون غيرها لأن شعوبها لم تكن لديهم في السابق أي قاعدة ثقافية، والفينيقيون لم يجدوا في الأرض سوى سكان بدائيين جدا محكوم عليهم بالبقاء في حالة من التخلف التام**". فلماذا تأخر ظهور الكتابة، الحياة الحضرية والنظم السياسية بالمنطقة المغاربية؟.

تناقش الباحثون حول الموضوع، فنجد الباحث الفرنسي "غوتيي" (1864-1940م) صاحب كتاب "أسلمة إفريقيا الشمالية: القرون المظلمة لبلاد المغرب" يقدم نظرية "اللعنة الجغرافية" حيث اعتبر البنية الجغرافية هي من كانت عائقا وراء عدم ظهور وحدة سياسية، وهي الرؤية التي يوافق عليها "شارل أندري جوليان" صاحب كتاب "تاريخ إفريقيا الشمالية" الذي حدد العائق الجغرافي الممثل في :"**التجزؤ الجغرافي، صعوبة المواصلات، انعدام الأودية الموصولة ببعضها، عدم صلاحية الأنهار(في الو اقع لا توجد)، عداء البحروقلة الأراضي النافعة**". هذه القساوة الطبيعية فرضت على السكان نمط معيشة يقوم على "حياة الترحال" (nomadisme)، والذي أشار له "هيرودوت بوضوح. هذا النمط خلق صراع آخر داخل البلاد المغاربية كان محط نقاش كبير بين الباحثين هو الصراع بين هؤلاء "البدو" والمتوطنين=المستقرين أو الحضر (sédentaires)، وهو صراع لم ينته طوال التاريخ المغاربي من الماضي للفترة المعاصرة، ومثلما سعى الملوك النوميد لمجابهته فإن "روما" شنت سياسات ومجهودات جبارة للحد منه، وهو ما انتهى بالفشل الأخير. هذا الصراع بينهما اعتبر أنه أحد العوامل وراء تأخر المظاهر الحضارية، فالترحال هو عكس "المدنية" التي تنتج المعرفة والتنظيم، والاقتصاد المتنوع بدل اقتصاد الرعي.

راح آخرون يفسرون الأمر بأسباب جينية يمكن أن نطلق عليها "القصور العرقي"، أي حالة العجز الفكري والذهني عن الابداع، انتاج الأفكار، اعتماد القانون وتطويره والايمان بفكرة الكيان السياسي الذي يتوحد تحته الجميع أي رفض العقل الليبي لفكرة الدولة، وهو ما ولد نظرية "الظل الأبدي"، والتي يرى أصحابها أن الليبيون هم عرق لا يتطور إلا تحت وبفضل حكم الآخر الأجنبي لهم، وقدموا لإثبات هذا التصور ما أنجزوه تحت وقع تأثير التبعية للثقافة الفينيقية، اللاتينية، العربية ووصولا حتى للفرنسية. صحيح أن بلاد المغرب لم تكن تملك ذلك القلب الحيوي القادر على تجميع

القبائل من حوله، لكن كيف تمكن الرومان، العرب، العثمانيون وأخيرا الفرنسيون من إحكام السيطرة على كل المنطقة؟. بهذا يبقى السؤال مطروحا للبحث وقابلا لفرضيات مختلفة تبقى كلها نسبية.

2-القبائل الليبية الكبرى:

بعيدا عن القبائل التي ذكرتها لنا الكتابات الهيروغليفية (التحنو، التمحو، الليبيو، المشواش)، وتلك التي ذكرها لنا "هيرودوت" في مؤلفه "التواريخ"، فإنه يمكن أن نعتبر أن هنالك أربعة قبائل (شعوب) احتلت مكانة معتبرة ضمن القبائل الليبية خلال الفترة الممتدة من الحروب البونيقية وصولا لنهاية الاحتلال الروماني، وهذا من مجموع مئات القبائل نقل لنا "بطليموس" في كتابه الشهير "الجغرافيا"، "بلينوس الأكبر" في كتابه "التاريخ الطبيعي"، و"سترابون" في مؤلفه "الجغرافيا" أسماءها (هنالك ترجمات عربية لها من الباحث الليبي محمد الدويب)، والتي درسها "ديسانج Jehan Desanges" في كتابه: "فهرس القبائل الإفريقية لغرب النيل خلال العصور القديمة الكلاسيكية catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil"، هي:

1-المور/الموريون (Maures): يبدو أن الجغرافيين الإغريق هم من كان أول المستعملين للفظ "موريزيا Maurizia" أو "مُروس Moros"، والذي أخذه الكُتاب اللاتين وحوروه إلى "الموري Mauri"، وهو اصطلاح يُطلق على الرقعة الجغرافية الأكثر بُعدا بالنسبية لقارة "ليبيا" (الغرب)، لذلك يعتبر الكثير من الباحثين أن كلمة "المور" تعني "أقصى الغرب"، فالموريون" معناها إذن "السكان الغربيون"، كما يميل هؤلاء الباحثون بأنها كلمة مشتقة في الأصل من كلمة سامية مُدغمة هي "ماهوريم Mahaurim" أخذها الإغريق عن القرطاجيين عبر النص البونيقي المتضمن "رحلة حنون" الشهيرة حول سواحل إفريقيا الغربية بعد أن اجتاز أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، وقد يكون الاسم كذلك محليا، فالجغرافي "بلينوس الأكبر" يذكر لنا أنه من بين قبائل موريطانيا الطنجية (مقاطعة رومانية عاصمتها طنجة) هنالك قبيلة رئيسية اسمها "ماوري" أفنتها الحروب تسقر بالقرب من وادي ملوية، وذهب باحثون آخرون مختصون في علم أسماء الأماكن (المواقعية) أن التسمية ربما مشتقة من "أور"، التي تعني في الليبية "الجبل"، وأنها قد تكون أخذت من جبل "أمور" المعروف حاليا بجبل "عمور" (هذا التصور غير دقيق، فالاكتشافات النقائشية الحديثة كشفت لنا جبل عمور قطنته قبيلة الباوار Bavares" وليس المور كما كان يعتقد).

في الواقع، لقد تباينت التسميات التي أطلقها المؤرخون والجغرافيون على هذه المنطقة وشعبها، فعند "تيتوس ليفوس" وردت على شكل: "موري Mauri"و "مورسيوس=Maurusisus=المواطن الموري"، في حين يذكر "سترابون" أن الأهالي كانوا يُسمون أنفسهم "ماوري"، وهي تقريبا ذات التسمية التي أطلقها الرومان عليهم، لكنه رغم ذلك فقد فضل (سترابون) استخدام تسميتي "موري" و"موريزي". ذهب "سالوستيوس" في كتابه "حرب يوغرطة" إلى الاعتقاد بأن تسمية المور هي مشتقة من "الميديون Mèdes"، وهم أحد الأقوام التي كانت تقطن الشمال-الغربي لإيران والشمال-الشرقي لبلاد ما بين الرافدين، فانتقل بعض من هذا الشعب ضمن جيش "هرقل" (بطل إلهي ابن الإله زيوس وألكميني" وأحد أبطال بلاد

الاغريق) وإلى جنبهم الفرس والأرمن، فقام كل هؤلاء برحلة بحرية وصلوا فيها إلى أعمدة هرقل، بعد وفاة قائدهم في إسبانيا انتقلوا إلى إفريقيا، فامتزج الميديون والأرمن بالليبيون، فنتج عن ذلك ظهور "المور".

بعيدا عن النقاش الطويل حول مسألة التسمية، فإن الأكيد أن دلالات التسمية تطورت، ففي البداية كانت تُطلق على السكان القاطنين على المنطقة الممتدة من "وادي ملوية" إلى المحيط الأطلسي (المغرب الحالية)، ويسكن جنوب أراضيهم قبيلة "جيتول الأتولول Gétules Autololes". ضمن هذه الأراضي ظهرت مملكة موريطانيا التي كان "باغا Baga" أول ملوكها، وحافظ نسله على حكمها: "بوخوس الأول"، "سُسوس"، "بوغود"، بوغود الثاني وبوخوس الثاني، هذا الأخير كان آخر ملوكها، والذي عند وفاته سنة 33 ق.م ترك وصية تنازل فيها عن المملكة لأوكتافيوس ابن يوليوس قيصر، الذي بدوره أسند إدارتها فيما بعد ليوبا الثاني وابنه بطليموس اللذان حكماها ما بين (25 ق.م-40م). بعد سقوط مملكة موريطانيا سنة 40م قسمت رقعتها الجغرافية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى "الوادي الكبير" (Ampsaga)-ينبع من ميلة، يمر على سطيف، قسنطينة وجيجل"، وعند وصوله لقسنطينة يصبح يعرف باسم وادي الرمال-إلى مقاطعتين: موريطانيا القصرية عاصمتها "شرشال Caesarea"، وموريطانيا الطنجية وعاصمتها "طنجة"، فأصبح الرومان يطلقون بذلك على كلا سكان المقاطعتين اسم "الموريون". في القرن الخامس والسادس أطلق "القديس أوغسطين" و"بروكبيوس" تسمية "المور" على السكان القاطنين بالأوراس الغير مُرومنين وعلى كل السكان الثائرين ضد روما والبيزنطيين. حافظت التسمية على وجودها في الفترة الوسيطية حيث أصبحت تطلق من قبل الكتاب الفرنسيين والاسبان بصيغة "موروس Moros" لتمييز المسلمين (العرب والبربر) الذي قاموا بغزو شبه الجزيرة الإيبيرية في القرن الثامن بقيادة طارق بن زياد وموسى بن النصير، وهذا بلا شك فإن العبور من أراضي المور نحو إسبانيا هو من دفعهم لتسميتهم بهذا الاسم، ومن هذا الاسم جاءت تسمية "الموريكسيون" التي أطلقت على أولئك المسلمون الذين خيروا عند سقوط غرناطة سنة 1492م بين البقاء في اسبانيا واعتناق المسيحية أو الخروج، فبقى البعض وخرجت الأغلبية نحو البلدان المغاربية.

2-النوميديون (الماسيل والمازيسيل): إلى الشرق من المور وبجوار "قرطاجة" نجد النوميديون (Numides) الذين ظهروا على الخريطة السياسية بدورهم في القرن الثالث مثل الموريون بالتزامن مع الحرب البونيقية الثانية. ينتشر النوميدين بالأساس في المغرب الأوسط مع امتداد في إفريقية (تونس الحالية) ، واتسع مجالهم أكثر مع توسعات ماسينيسا المشار إليها خلال فترة ما بين 193-150 ق.م. في هذه الرقعة ظهرت مملكتين هما: "نوميديا الشرقية أو الماسيل Massyli"، ويطلق على شعبها "الماسيليون Massylii=Massyles"، و"نوميديا الغربية=المازيسيل Massaesyli"، والتي يطلق على سكانها بالمازيسيليون Massaesyles". فمن يكونا؟.

-الماسيل: هو على الأرجح اسم لقبيلة في البداية ثم أصبح اسم للمملكة، تساؤل "غزال" إذا كانت الأوراس هي مهد السلالة الحاكمة للماسيل، وهذا بالاستناد على ضريح "المدغاسن" الشهير الواقع ببلدية البومية بولاية باتنة، والمؤرخ في أواخر القرن الرابع-بداية القرن الثالث قبل الميلاد. هذا المدفن يُعتقد أن ربما دُفن بها عاهل ماسيلي، أو لنقل بالأخرى

مخصص لدفن أفراد العائلة الحاكمة. تمت الإشارة إلى الماسيل لأول مرّة في زمن الحرب البونيقية الأولى، واعتبرها "بلينوس" ضمن قبائل مقاطعة إفريقيا البروقنصلية الممتدة من الوادي الكبير إلى إقليم برقة=قورينائية، ليحدد لنا "سترابون" بأن الحدود بينها وبين المازيسيل هو "رأس تريتون=رأس بوقارون بالقل". لا نعرف بالضبط مجال هذه القبيلة التي ليس من المُؤكد أن "قيرطا=كيرتا=كيرتن" (قسنطينة) هي أحد حواضرها، لهذا التصور العام لمجالها هو من شرق "قيرطا" وصولا إلى الأراضي القرطاجية، أي على الأخص مجال الحدود الجزائرية-التونسية. لا نعرف بوضوح كذلك أصل التسمية، فمثلما يعتقد البعض أنها تسمية محلية، فإنها تذكرها بالتسمية الاغريقية لمدينة "مرسيليا" (ماساليا Massalia)، فهل الأمر مجرد تقارب لفظي أم أن المؤرخين الاغريق لهم دور في صياغة التسمية؟، لا نعرف بالضبط.

-المازيسيل: هم اسم مملكة بعد أن كان يُطلق على قبيلة، ويلاحظ أن هنالك اختلافات عديدة في نسخ التسمية بين المصادر. فحدد "سترابون" أراضي دولة المازيسيل بأنها تلك الممتدة من وادي الملوية الذي يفصلها عن أراضي الموريين Maurousii غربا إلى غاية رأس بوقارون شرقا، على أن "بلينوس الأكبر" حدد مجالها بموريطانيا الطنجية بجوار الموريون، لكن في الواقع القبيلة تقع بالأساس في موريطانيا القيصرية (مقاطعة رومانية تمتد من شمال الوادي الكبير (نواحي سطيف) وصولا لوادي ملوية)، وتمتد جنوبا لغاية أراضي الجيتول، ليأتي "بطليموس" ويقلص مجالها في القرن الثاني ميلادي إلى منطقة معسكر أو لنقل المنطقة الوهرانية. برزت القبيلة-المملكة بالأساس في فترة الحرب البونيقية الثانية مع ملكها "سيفاقس"، وبسقوطها في حوالي 202-200 ق.م أصبحت أراضيها تابعة لملك الماسيل "ماسينيسا" ما خلق ما يُطلق عليه "نوميديا الموحدة".

لا تزال تسمية "نوميديا Numidae" غامضة، فالمؤرخ "هيرودوت" عندما نقل لنا أسماء القبائل الليبية قسمها لنا على أساس "نمط المعيشة" إلى "ليبيون مستقرون" وليبيون رحل Nomados، وبالتالي فإن التسمية قد تعني مبدئيا الليبيون الذي يقوم نمط معيشتهم على البداوة والترحال وهذا بحثا عن العشب لماشيتهم. الكُتاب الرومان تقريبا يقدمون نفس الصورة، فهذا ""سترابون" يصف النوميديون قائلا: "**هذا الشعب يحب كثيرا الترحال دون توقف تاركا الأرض للزواحف والحيوانات المفترسة، مفضلا حياة البداوة على غرار شعوب أخرى عاشت تحت رحمة الفقر، الجفاف وقساوة المناخ**". إذن النوميديون ليسوا جماعة إثنية (عرقية) بل جماعة اشترك أفرادها في نمط العيش. من جهته "سالوستيوس" يذكر أن النوميديون هم نتاج امتزاج "الفرس" بالجيتول، فأطلقوا على أنفسهم هذه التسمية التي تعني "الرحل=المتنقلين"، ومع تزايد أعدادهم وقوتهم سيطروا على جزء كبير من البلاد وأسسوا ممالك لهم. المؤرخ الاغريقي الصديق لماسينيسا "بوليبيوس" وظف التسمية للدلالة على الكيان السياسي المُحدد والذي أصبح يخضع لحكم "ماسينيسا" وأبناءه، أي المنطقة الممتدة من غرب "قرطاجة" شاملة كل الجزائر الحالية وصولا إلى وادي الملوية. بهذا الاشتقاق الاسمي فإن الصورة النمطية التي تتبادر للأذهان بأن هؤلاء النوميديون في غالبيتهم هم "رحل"، شعوب هائمة بلا زراعة، لا مُدن ولا قوانين، فما مدى صحة ذلك؟. في الواقع علينا أن نميز بين "النوماد=الرحل" و"نوميديا"، فالمملكة نعتقد أنها أخذت تسميتها من كون غالبية أفرادها يمارسون حياة الترحال، وهو الأمر الذي جعل "ماسينيسا" يبذل مجهودات كبيرة لنقلهم من الترحال إلى الاستقرار، فالبداوة ببلاد المغرب ظاهرة اجتماعية معروفة ومعترف بها من قبل

الجميع طوال الفترة القديمة، في ذات الوقت الذي كان جزء معتبر يمارس حياة الترحال كان هنالك نوميديون آخرون يعيشون حياة مستقرة، لهم مدن وقرى ويمارسون الزراعة، ولهم أسواق. هذه المدن نميزها إلى مدن ساحلية وأخرى داخلية، الساحلية منها في معظمها هي من تأسيس الفينيقيين ثم ألحقها النوميديون بمملكتهم، الداخلية برزت على الخصوص في عهد "ماسينيسا": تبسة، دوقة، قيرطا، سيغا (عاصمة سيفاقس)، وهي الأخرى نجد التأثيرات البونيقية عليها. من ناحية القانون فالنوميديون احتكموا للأعراف أكثر من القوانين التي لا نعرف عنها شيئا.

-الجيتول (Gaetuli): يعتبر الباحثون أن اصطلاح "الجيتول" يعني "نمط عيش" أكثر منه شعب محدد ومتجانس، استقر أصحاب هذا النمط المعيشي القائم بالأساس في الهضاب العليا، سباسب وسهوب كل من تونس، الجزائر والمغرب، وساحل وداخل غرب ليبيا الحالية، وصولا لمنطقة حواف الصحراء. إذا كانت "سالوستيوس" يعتبرهم السكان الأصليون للبلاد المغاربية رفقة الليبيون، وأن اختلاطهم مع الفرس أدى لظهور النوميديون، فإن "سترابون" شبههم "ببدو العرب"، ووصف خيولهم وأبقارهم بأنها كثيرة العدد، لهذا يعرف عن الجيتول أنهم رعاة نموذجيين، ولكن أيضا أمة مُولعة بالحرب. إذا عدنا لمختلف الإشارات المُقدمة حولهم فنجد أنهم ذكروا في مؤلف "حرب يوغرطة" (112-105 .م) عدد المرات، وقال عنهم "سالوستيوس" أنهم ينتشرون في وسط صحاري كبرى، وأنهم قوم متوحشين وغير متحضرين، يتغذون على الحيوانات المتوحشة، لا تحكمهم أية أعراف وقانون، ولا يخضعون لأي سلطة وهم بدو رحل، وأنهم في وقت الحرب كانوا يجهلون اسم الرومان، وهو غير صحيح تماما لأن حسب "تيتوس ليفوس" كانوا ضمن جيش "حنبعل" سنة 216 ق.م.

ليس من السهولة تحديد التخوم الشمالية لبلاد "جيتوليا" بالدقة الكافية، فنجد أنفسنا نعرفها أفضل في الجزء الشرقي لبلاد المغرب الأوسط، فمن حرب "يوغرطة" لعهد حملة "يوليوس قيصر" 47-46 ق.م لم يكن الجيتول بعيدين عن "قيرطا" جنوبا، لهذا يظهر أن "قصر صباحي" (بأم البواقي) و"مداوروش" تقعان على تخوم أراضي الجيتول، ثم بالاستناد على "لوحة بوتنيغر" تمر هذه التخوم على "يوكوس" (بتبسة)، إلى الغرب قليلا من "تبسة" (Theveste)، على أنها تشمل "تلابت=المدينة القديمة" وقفصة، وفي وقت سابق (قبل الاحتلال الروماني) كان الكينثيون (Cinithi) وعاصمتهم "بوغارة" ضمن المجال التابع للجيتول أي هنالك انتشار لهم في السيرت الصغير (خليج قابس)، وهو ما يتأكد من لوحة بوتينغر التي تشير إلى وجود الجيتول المتجولون (Bagigetuli) عند وداي يصب قبالة جزيرة جربة. أبعد من ذلك، ونحو الشرق نجد الجيتول مستقرين في امتداد الساحل التريبوليتاني (ساحل المدن الثلاث: طرابلس، صبراتة، لبدة)، والذي يمكن تسميتهم بجيتول "السيرتين" (الصغير والكبير).

يبدو أنه مع مرور الوقت ونتيجة التوسعات الرومانية أصبح الجيتول أكثر جنوبية، فلوحة "بوتينغر" لا تشير بأن "لامبايزيس" (تازولت) وتيمقاد كأراضي للجتيول، على أن القديس أوغسطين يعارض فكرة وقوع أراضيهم ضمن النطاق الجاف لأنها تُروى حسب قوله من أمطار "هيبون"، لهذا فإن "جيتوليا" بالنسبة له تمثل منطقة "الهضاب العليا" التي تمتد إلى شمال الأوراس وجبال النمامشة، وهنا يمكننا تحديد مقاطعة "الجيتول" في الفترة الوندالية. كان الجيتول مجتمعون كذلك في موريطانيا، فحينما منح "أوكتافيوس أغسطس" يوبا الثاني حكم "موريطانيا" سلّم له ضمنها أراضي يقطنها

الجيتول قدم لنا "سترابون" صورة عنها، وهي أراضي شاسعة بجنوب مقاطعة موريطانيا القيصرية نسبت فيما بعد لنوميديا: "زراية (بسطيف)، تهودة (بسكرة) مرورا بطبنة (قرب بريكة). نحو الجنوب، الحد بين "جيتوليا" و"أثيوبيا" (بلاد الزنوج) هو حسب "بلينوس" وادي يُطلق عليه "Flumen Nigris"، وهو على الأقرب "وادي جدي" (بهذا فهم الحد الفاصل بين الجنس الزنجي والجنس الأبيض بقارة إفريقيا). إلى الغرب، وحسب "بلينوس" نجد "الجيتول الأتولول" المستقرين في الطريق المؤدي إلى "شالة" (Sala) قرب الرباط، ومثلما يصل مجالهم لغاية الأطلس بموريطانيا الطنجية فإنه يمتد جنوبا ليصل لأراضي الأثيوبيين (درعة العليا، سواحل ناحية الصويرة).

بهذا الوصف والامتداد فإن الجيتول يستقرون بالمنطقة الممتدة من رمال السيرتين إلى سواحل المحيط الأطلسي على شريط عرضي غير متجانس جغرافيا، وهو ما دفع "سترابون" لاعتبارهم "أقوى وأكبر الشعوب الليبية"، لكن رغم ذلك ما من دليل يؤكد أنهم شكلوا مملكة خاصة بهم، وهذا بالتأكيد لأنهم كانوا رحلا في غالبيتهم، كما لا يمكننا اعتبارهم وحدة اثنية. يذهب "غزال" لاعتبار الجيتول كل أولئك الذين بقوا يعيشون على أطراف ممالك المور، الماسيل والمازيسيل، ويبدو أن ملوك هذه الممالك كانت لهم محاولات لإخضاعهم، وهو ما استثمر فيه الرومان عبر توظيف هذا الشعب في حروبها العديدة ضد النوميد (نرى ذلك مع ماريوس في حرب يوغرطة ومع يوليوس قيصر في حرب يوبا الأول).

-الغرامنت (Garamantes): ورد ذكرها عند "هيرودوت" ضمن القبائل القاطنة بالداخل الليبي على حبات الرمل. قبيلة كبيرة العدد وتسكن حول ربوة ملح تبعد عن واحة "أوجلة" بمقدار 10 أيام سير (حسب هيرودوت). حدد "غزال" أحد مراكزها بموقع "زلة Zella"، إلى الجنوب-الشرقي من واحة "الجفارة". بفضل إشارات "بلينوس" وبطليموس تعرفنا أكثر على الطريق الموصل لها: من بوغارة (Gigthis) أو "لبدة" إلى "غدامس" ثم "ادري Edéri" ليتم الوصول إلى العاصمة "جرمة Garama" بعد الالتفاف على "الحمادة الحمراء"، وهو الطريق المختصر الذي اكتشف في عهد الإمبراطور "واسباسيانوس" (70م). حدد "سترابون" موقعهم بجنوب الجيتول على الشريط الموازي بمسيرة 07 أو 10 أيام إلى شرق الأثيوبيون المجاورون للأطلسي، وإلى شرق "الفاروسيون Pharusiens" و"النيغرتيون Nigrites" وعلى بعد 15 يوما من واحة "أمون"، وطبعا هي إشارات واسعة وغامضة. "تيتوس ليفوس" حددهم بأنهم بعيدون قليلا عن "الموانئ البونيقية Punica emporia" للسيرت الصغير، أما "بلينوس" فحددهم بمسيرة 12 يوم من واحة "أوجلة"، وحدد بوضوح أن "جرمة" في إقليم "فزان" هي عاصمتهم.

على الرغم من هذه الإشارات التي تجعلهم أبعد إلى الجنوب فإنه يبدو أنهم كانوا غير بعيدين عن المدن الساحلية لتريبوليتانيا، وبعضهم مجاور لمدينة "لبدة"، وهو ما يعبر عن رقعتهم الجغرافية الواسعة التي تمتد حسب "بطليموس" على منطقة واسعة من ليبيا الداخلية بين منابع "مجردة/مسكيانة Bagrada" وبحيرة "نوبا Nouba" (مجهولة). في حين لوحة "بوتينغر" حددت موقعهم بين وادي كعام Cinyps إلى الغرب، بحيرة مجهولة إلى الشمال، جبل السوداء أين يخرج وادي باي Bai إلى الشرق، ووادي "غير Gir" إلى الجنوب. إن هذه الإشارات إلى جانب الأبحاث الأثرية الأخيرة سمحت لنا

بتحديد موقعهم على وجه الأخص في إقليم فزان" مع امتلاكهم لنفوذ نحو الشمال (السواحل التريبوليتانية) وجنوبا نحو الصحراء الكبرى.

طرح المؤرخون موضوع "لون بشرة" الغرامنتيون، فاعتبرهم بعض المصادر "داكنين foncés"، بعض الكتاب اعتبروهم ضمن الأثيوبيون أي "سود"، وآخرون ميزوا بينهم (خليط بينهما)، في حين تقودنا فسيفسائيات "زليتن" الشهيرة والتنقيبات الأنثربولوجية بفزان إلى كونهم ذو بشرة مُسمرة وخليط، كما أنه في الحقيقة اصطلاح "الأثيوبيين" لا يعني أن كلهم "زنوج"، بهذا فنتصور أن الغرامنتيون الشماليون هم سمر، في حين أولئك الذي بالجنوب هم سود، وعلينا ألا ننسى أن الغرامنتيون كانوا معروفين بتجارة وامتلاك العبيد التي يجلبونها من إفريقيا جنوب الصحراء، لهذا نعتبر "الغرامنتيون" بمثابة شعب وسيط بين الليبيون والأثيوبيون.

عرف عن الغرامنتيون بأنهم بناة لثقافة قوية، فقد كانت لهم كتابة (التيفناغ)، ولهم نظام سقي تحتأرضي جد متطور يعرف باسم "الفوغارة"، ممارستهم للعب الوسيط التجاري في البداية مع القرطاجيين ثم مع الرومان زاد من ثرائهم، لهم عاصمة سياسية هي "جرمة"، ومن المؤكد تشكيلهم لمملكة سمحت لنا عديد الإشارات من التعرف على ملوكها، وتكشف لنا الرسوم الصخرية عن مختلف الحيوانات التي كانوا يصطدونها: "الأخدر" ،النعامة، القردة وأحيانا الفيلة، وأنهم كانوا يلاحقون الأثيوبيون سكنة الكهوف عبر العربات، لهذا وصفها هيرودوت "بالأمة العظيمة". مؤخرا هنالك اهتمام متزايد بدراسة تاريخهم والبحث عن آثارهم من أبرز أعلامه المؤرخ والأثري الإنجليزي "ماتينغلي" (D. Mattingly).

ثالثا-أصول وتطور الممالك:

بالتزامن مع الحرب البونيقية الثانية بدأت المصادر الإغريقية والرومانية تحدثنا عن هذه الممالك الليبية باعتبار أنه أصبح لها دور في أحداث الحرب، وأصبحت محل تنافس بين "قرطاجة" "وروما" لكسب تحالفها ودعمها، وبالأخص الماسيل والمازيسيل، هنا نتساءل عن أصولها: فهلهي قديمة النشأة والتأسيس أم أنها حديثة؟. يعتقد البعض أنها قديمة، وهذا بالاستناد على ذكر بعض الكتاب القدامى لملوك ليبيين عاشوا قبل هذه الحرب، الأكثر قدما هو "هيرباص Hiarbas" الذي ذُكر في أسطورة عليسة، والذي طلب الزواج منها، لكنها فضلت الانتحار بالمحرقة على الزواج به كوفاء منها لذكرى زوجها. في الواقع هذا الملك هو أكثر أو أقل أسطورية، فمثلما هو محتمل أنه شخصية مُختلقة لوضع تلك النهاية المأساوية للملكة الصورية، مثلما هو وراد وجود ملك بهذا الاسم، خصوصا وأننا نمتلك ملك نوميدي يُدعى "هيرباص" في القرن الأول قبل الميلاد، ثم إن افترضنا أنه ملك، فلماذا هذه المملكة غابت عن الذكر طوال فترة قرابة 06 قرون؟، ما هو مجالها؟، لذلك نعتقد أن الأمر يتعلق بشيخ قبيلة أكثر منه ملك وبقبيلة أكثر منها مملكة تواجدت بجوار "قرطاجة".

المؤرخ "يوستينيوس" يذكر كذلك أن قرطاجة ظلت تدفع ضريبة سنوية للمغاربة القدماء منذ تأسيسها في 814 ق.م لغاية القرن الخامس قبل الميلاد، ما فهم منه وجود نظام سياسي يُحصلها؟، لكن دعونا نتساءل: من هي هذه الملكة؟، ولماذا تدفع تلك الضريبة؟. نشكك في تلك الضريبة ونرى أن الأمر يتعلق بنوع من الايجار كان القرطاجيون يدفعونه في

البداية لمالك أو مُلاك الأرض (قبيلة) التي بنيت عليها المدينة أو مقابل أراضي تم كراءها لزراعتها، هذا إن صح من الأساس أن قرطاجة كانت تدفع الأجرة، فالمدينة لم تكن فقط للفينيقيين القادمين من الشرق كما يعتقد بل سكن بها الليبيون أيضا مثلما تشير إليه أسطورة عليسة. في القرن الرابع قبل الميلاد نجد ذكرا لملوك، في المرة الأولى يذكر "يوستينيوس" أن شخصية تدعى "حنون" استعانت بملك ماوري=موري للاستيلاء على السلطة، ويبدو أن الأمر يتعلق بشيخ قبيلة أكثر من مملكة، والاشارة الثانية عند "ديودور الصقلي" الذي حدثنا عن تحالف ملك يدعى "ايليماس" مع أغاثوكليس حاكم سرقوسة في حملته على إفريقيا (311-308 ق.م). كما يرى البعض أن التطور السياسي والاقتصادي الذي عرفته الممالك المحلية في القرن الثالث يبعث على الاعتقاد بوجود نظم سياسية واجتماعية اقتصادية سابقة للقرن الثالث قبل الميلاد.

في الواقع يتجاهل أصحاب هذه التصورات العديد من الحقائق، أولها مثلا أن "هيرودوت" في القرن الخامس قبل الميلاد لا يحدثنا إطلاقا على وجود ممالك لليبيين بل اكتفى بتصنيفهم إلى رحل ومستقرون، ولم يشر أن هؤلاء المستقرون قد كانت لهم ممالك. ثانيا، الرحلة البحرية لسيلاكس المحول (periplus of Pseudo-Scylax) المؤرخة في أواخر القرن الرابع-بداية القرن الثالث تذكر أن كل المدن الساحلية تابعة لقرطاجة سواء تلك الواقعة على الواجهة المتوسطية أو الأطلسية، ما يعني مبدئيا أن إن كانت هنالك ممالك فإنها داخلية ولا تملك واجهة بحرية، أخيرا علم الآثار (الأطلال) ومعها المسكوكات لا تؤكدان ذلك، فضريح المدغاسن لا يزال مجهول الصفة السياسية له، وأول ملك محلي سك عملة هو "سيفاقس" في حوالي 215-203 ق.م. بهذا فإن نظرية قدم هذه وجود الممالك لا تزال تفتقر لأدلة قوية، لكن هذا لا يمنع من الاعتقاد مبدئيا أنها ظهرت مبدئيا في القرن الرابع قبل الميلاد وارتقت سياسيا وعسكريا في القرن الثالث قبل الميلاد.

ثالثا-1-مملكة نوميديا الغربية (المازيسيل):

لا نمتلك الكثير من الإفادات حول هذه المملكة التي لم تعش طويلا (220-202 ق.م)، لكن لم يمنع من تشكيل صورة تقريبية عنها، ومن معرفة ملكها القوي "سيفاقس" (Syphax). أول إشارة للمازيسيل وردت عند "بوليبيوس" الذي حدثنا عن أنهم كانوا ضمن جيش "حنبعل" المتواجد بإسبانيا في 219-218 ق.م، ما يُفهم منه أن المملكة كانت حليفة لقرطاجة وحنبعل في بداية الحرب البونيقية الثانية. يحدد "سترابون" امتداد المملكة قائلا: "**يأتي بعد وطن "المور" وطن المازيسيل الذي يبدأ من وادي ملوية وينتهي عند رأس "تريتون"**، وهو المجال الذي وسع بعد تمكن "سيفاقس" من توحيد النوميدتين عبر التوسع على حساب أراضي الماسيل حيث وصل لغاية "الكاف"، في حين وصلت الحدود الجنوبية لمدينة "مداوروش" أي بجوار أراضي الجيتول. للمملكة عاصمة هي مدينة "سيقا Siga" المعروفة اليوم باسم "تاكمبريت" ببلدية "ولهاصة الغرابة" بولاية "عين تموشنت"، والواقعة على الضفة اليُسرى لوادي التافنة. بفضل توسعه جعل من "قيرطا" عاصمة ثانية له، وفي الواقع هذه المدينة لا تزال محط نقاش: هل كانت مدينة مازيسيلية قبل 205 ق.م، أم أنها مدينة ماسيلية ألحقها "سيفاقس" بمملكته سنة 205 ق.م؟، إن صحت الفرضية الأولى فنحن أمام إشكالية اسمها: ما هي عاصمة الماسيل؟.

بالعودة إلى ملكها "سيفاقس" فإنه يمكننا اعتباره أوائل المُلوك النوميد الذين عرفهم المغرب القديم. نجهل سنة مولده، وكذلك سنة توليه المُلك، فقدم البعض فرضيات عديدة: 220 ق.م، في راح رجح آخرون سنة 213 ق.م. تذكره العملات المكتوبة بالبونيقية على شكل: "حملكت سفك HMMLKT SphQ" أي "سيفاقس سيد المملكة"، ويُعتقد ان اسمه مُشتق من الإله الاغريقي (هو في الأصح بطل أو نصف إله) "سوفاقس Sufax=Sophax" ابن الإلهة "تنجيس Tinjis" من زواجها الثاني من الإله "هرقل"، ويعد "سيفاقس" أول ملك ليبي سّك عملة ببلاد المغرب (عملات برونزية وابنه "فرمينا" سك عملات فضية، كما أن له ابن آخر يُدعى "تاناكوا Tanakwa")، وأول من وحد النوميدتين في دولة واحدة. أقام "سيفاقس" علاقات متعددة مع عديد القوى نلخص كالتالي:

-**علاقته بالجمهورية الرومانية:** بدأت علاقاته مع "روما" في تاريخ يعسر تحديده نميل لكونه محصور ما بين 213-211 ق.م، حيث راحت الدبلوماسية الرومانية تستغل توتر العلاقات بين "سيفاقس" و"قرطاجة" لعرض التحالف عليه، وهو ما وافق عليه وطلب منها إرسال ضباط لتدريب جيشه على الفنون القتالية الرومانية، فأرسل الرومان ثلاث ضباط برتبة "قائد للمائة centurion"، وهي الرواية التي يشكك فيها البعض لأن نتائج التدريبات لم تظهر على جيشه. تجسد التحالف كذلك في توجه "سيفاقس" على رأس جيشه إلى إسبانيا للمشاركة إلى جانب الرومان ضد "قرطاجة"، وهنالك حدثت له أول مواجهة مع "ماسينيسا" الذي أرسله والده سنة 213-212 ق.م للقتال لجنب القرطاجيون. وفي 210 ق.م أرسل الرومان ثلاث من ممثليهم يحملون الهدايا له: عباءة، قميص أرجواني، كرسي من العاج، كأس من الذهب وهدايا أخرى لشخصيات مازيسيلية مقربة منه. ومثلما حاول الرومان استمالته بالتكوين العسكري والهدايا، فإنهم هم من ساعدوه على سّك العملة حيث وصل باحثون إلى أن هنالك مجموعة نقدية له متقنة الصنع ضربت في ورشة سك عملة رومانية بالجنوب الاسباني. رغم هذه الصلات إلى أن العلاقة يبدو أنها انقطعت لأسباب مجهولة قد تُفسر بالقراءة السياسية لسيفاقس الذي أراد أن ينأى بمملكته عن هذا الصراع ويختار الحياد، وهذا بدليل أنه في سن 206 ق.م القائد الروماني "سكيبيو" والقائد القرطاجي "صدربعل جيسكو" التقيا بالصدفة في عاصمته، وكلاهما كان يسعى لإقناعه بالتحالف معه، لكن بدلا من ذلك راح يدعوهما إلى إنهاء الحرب، وهو ما رفضه "سكيبيو" بداعي أن القرار بيد مجلس الشيوخ.

-**علاقته بجيرانه الماسيل:** العلاقات هي الأخرى غير واضحة بالشكل الكافي، فتارة نجدها هادئة وفي غالب الأحيان متوترة، فيشير "تيتوس ليفوس" إلى أنه دار صراع بينه وبين الملك "غايا" على منطقة حدودية غير معروفة في تاريخ غير محدد. بعد وفاة "غايا" استغل النزاع الذي برز داخل العائلة الحاكمة الماسيلية وراح يُدعم "لاكومازس" الذي قتل "كابوسا" ليقف في وجه "ماسينيسا" الذي تحالف مع الرومان حينها بجيش قوامه 15 ألف مشاة و1000 فارس، لكن "ماسينيسا تمكن من هزمه، وعقدت بين "ماسينيسا" وابن عمه هدنة، على أن "سيفاقس" راح يجتاح مملكة الماسيل بتشجيع من "قرطاجة" أين سيطر عليها بسهولة سنة 205 ق.م، هزم "ماسينيسا" الذي فر وهو مصاب بجروح إلى جبال تقع في نواحي "عنابة"، وهنالك انتظر وصول الرومان بقيادة "سكيبيو الإفريقي" لنجدته.

-**علاقته بالدولة القرطاجية:** العلاقات القرطاجية-المازيسلية بلا شك هي سابقة لسنة 218 ق.م، وتظهر من خلال التحالف العسكري بينهما، على أنه سنة 213 ق.م توترت العلاقات بينهما ما أدى لاندلاع حرب استدعت على إثرها قرطاجة "صدربعل برقا" من اسبانيا الذي قدم وهزم "سيفاقس". توتر فسره البعض بإحساسه بأن قرطاجة تميل لغريمه "غايا" وقبولها بمطالبه الترابية، لكن الفرضية الأقوى أنه سعى لاستغلال فرصة الحرب لانتزاع مناطق ساحلية تابعة لقرطاجة تقع ضمن المجال المازيسيلي، والتي من ضمنها "رشقون" وجزيرتها (Portus Sigensis). لتتوتر العلاقة أكثر مع تحالفه مع الرومان. على أنه بعد مؤتمر "سيقا" اختار الانحياز في الأخير لقرطاجة، ربما للمعرفة السياسية السابقة بينهما، ومسايرة "قرطاجة" لطموحات هذا الحليف القوي بمجال مملكته وقوة جيشه، تحالف عُزز بزواجه من "صوفونيزيبا" ابنة القائد "صدربعل جيسكو"، والتي يُعتقد أنها شاركته في إدارة المملكة، ويذهب آخرون للاعتقاد بأنها من كانت وراء إنشاء المعبد البونيقي الشهير بالحفرة بقسنطينة، والذي سُخر لعبادة الإلهة "تانيت" والإله "بعل حمون". تمكن "سيفاقس" منذ 205 ق.م من استعادة أراضي انتزعها منه "غايا" سابقا، وهاجم "ماسينيسا"، وأرسل مبعوثين إلى "صقلية" لإعلام "سكيبيو" بانضمامه لحلف قرطاجة قائلا: "**إنه عليّ في هذه الحالة القتال دفاعا عن أرض إفريقيا التي وُلدت فيها مثل القرطاجيون، والدفاع عن وطني زوجتي، وفي سبيل أبي وآلهتي**". عند نزول "سكيبيو" انضم "سيفاقس" لقرطاجة بجيش قوامه 60 ألف جندي، أين ساهم به في رفع الحصار على مدينة "عتيقة=أوتيكا"، وحاول مجددا انهاء النزاع عبر الوساطة والدعوة إلى إيقاف الحرب، فتظاهر "سكيبيو" بقبول التفاوض لربح الوقت ولمعرفة المعسكر القرطاجي الذي تم إحراقه ليلا في سنة 203 ق.م، ثم جمع جيشا قوامه 30 ألف جندي من جديد وشارك به في معركة "السهول الكبرى" التي عندما أحس بقرب الانهزام فر عائدا إلى "قيرطا" أين تمت ملاحقته من "لاليوس" و"ماسينيسا" لتجري معركة "قيرطا" التي هزم وأسر فيها. دخل "ماسينيسا" إلى قيرطا أين وجد "صوفينزبا" التي استطاعت اقناعه بالزواج منها، وهو ما حدث، فعاتبه "سكيبيو" على ذلك لأنها عدوة للشعب الروماني ولا يحق له تقرير مصيرها، فأمره بتسليمها. أمام هذا الأمر لم يبق أمامها سوى الانتحار، ولا نعرف إن كان "ماسينيسا" هو من سقاها بالسم، أو كما أشار "تيتوس ليفوس" بأنه كلف أحد خدمه للقيام بذلك، في حين يشير "أبيانوس" بأنه "ماسينيسا" سلمها لهم، فرضيات عديدة نرجح فيها فرضية أنها هي من انتحرت لما أحست أن "ماسينيسا" خضع للأوامر الرومانية وهم بالتضحية بها من أجل استرجاع الملك والمحافظة على صداقته مع الرومان.

نقل "سيفاقس" لروما بعد أسره رفقة بعض رفاقه وابنه أين حول إلى معتقل "ألبا فونكنس Alba Funcens"، ثم إلى معتقل "تيفولي" (Tibur) أين توفي على الأقرب سنة 202 ق.م، وعند وفاته أخذت الجمهورية الرومانية على عاتقها دفنها، فتوفي مخلفا وراءه ثلاث بنات وولدين، أحدهما هو "فرمينا" الذي حكم المملكة من بعده لتاريخ غير معروف (على الأرجح 200 ق.م). بموت الأب والابن كانت الأعراف الرومانية تقتضي أن تعتبر الأراضي المازيسلية ملكية للشعب الروماني (ager publicus)، لكنهم فضلوا إلحاقها بمملكة "ماسينيسا" فأرسلوا جنودهم رفقة جنود ماسينيسا لتوطيد السيطرة. في الأخير: إن هذا الملك يمثل بشكل فعلي بداية تاريخ الليبيين، فهو الذي تمكن من توسيع مملكته لتشمل كل نوميديا، ولو خرجت "قرطاجة" ظافرة في الحرب عوض روما لكان من المُحتمل أن يتقلد المزايا المعترف بها لماسينيسا (لاحظ كيف

أن المدرسة الفرنسية راحت تؤلف عديد المؤلفات التي تعتبر فيها أن "ماسينيسا" مثّل بداية تاريخ البربر مع تجاهل تام لسيفاقس)، وقد كان أول ملك نوميدي يسّك ونجله "ورمينا" عملات فضية متقنة الصنع، وهو الشيء الذي لم يصل له "ماسينيسا" بعد حينها. كان "سيفاقس" حليفا لقرطاجة يمارس سلطته-رغم زعم البعض بتأثير "صوفونيزيا عليه- باستقلالية عن "قرطاجة" أكثر من "ماسينيسا"، وهو ما لم يفعله هذا الأخير وهو منتصر إزاء روما، وكان علاقاته مع "قرطاجة" وروما مبنية على سيادة مُطلقة، كما كان سيد الساحل الوهراني، وبدل التورط في الحرب راح "سيفاقس" يحاول الاستفادة منها، الحياد، ومن ثمة الدعوة عبر قمة "سيقا" 206 ق.م إلى السلام بين القوى المتحاربة: يا له من حدث فريد، "سيفاقس" يُجبر القائد الروماني "سكيبيو" على القدوم إلى عاصمته، وفي غضون ذلك يأتي "صدربعل جيسكو"، واللذين أقاما عدة أيام في مدينته أين راح يدعوهما لإيقاف الحرب، هذا القائد الروماني ذاته استدعى "ماسينيسا" عنده كتابع وأرغمه على أن يترك "صوفونيزبا تتجرع "الكأس اللعين". خطأ "سيفاقس" هو أنه انهزم، والتاريخ الذي يُقال عنه محايد قال كلمته المُدوية: "**الويل للمهزوم**" (vae victis).

2-مملكة "الماسيل" ونوميديا الموحدة:

لا نعرف شيئا عن أصول هذه المملكة التي يُمكن اعتبار "غايا Gaia" أول ملوكها، أو ربما والده المعروف بزيلالسن. لم تكن لهذه المملكة لا القوة ولا الامتداد الذي بحوزة جارتها الغربية، فرأينا كيف سقطت بسهولة وسرعة تحت الضربات القوية لسيفاقس، ولولا المساعدة الرومانية لما تمكن "ماسينيسا" من استرجاع المُلك. تمتد أراضي الماسيل بالشرق الجزائري وتونس الغربية، وهو ما جعلها تضم أقاليم جبلية وغابية تناسب التربية الحيوانية، وكذلك سهول عليا وسفوح جبال ملائمة لزراعة الحبوب. قد تكون "قيرطا" مدينة ماسيلية، وهي في ذات الوقت مركز هام للحضارة البونيقية خلال القرن الثالث، ومثلما هو وارد خضوعها لسيفاقس لفترة وجيزة (205-203 ق.م) فإنه وارد أيضا أنها مدينة "مازيسيلية" قبل سنة 205 ق.م. في الواقع مثلما هو محتمل أن القوة الماسيلية تمركزت حول مدينتي "دوقة" و"قيرطا" ،فإنه وارد أيضا أن القوة الماسيلية تعود للشمال الأوراسي أين يوجد ضريح "المدغاسن".

لا نعرف إلا القليل عن فترة حكم "غايا" الذي مثلما ظل في غالب الأحيان حليفا لقرطاجة، فقد توترت علاقته معها واستطاع انتزاع أراضي منها، في حين جاءت علاقاته متشنجة مع "سيفاقس" نتيجة الصراع الحدودي بينهما حول منطقة مجهولة نميل لكونها غير بعيدة عن "قيرطا"، وهو الأمر الذي سبب متاعب لقرطاجة لأنه كان من مصلحتها كسب الطرفين معها في الحرب لإمدادها بالرجال والتموين. بعد وفاة "غايا" انتقل الحكم إلى أخوه "أوزالسيس Oezalcès" وفق التقاليد النوميدية التي تنقل السلطة للأكبر سنا، بدوره توفي هذا الملك بعد أشهر عديدة أين خلفه ابنه "كابوسا Capussa"، وهو الآخر لم يدم حكمه إلا قليلا حيث تمت الإطاحة به من "مازيتول Mazétule"، الذي هو قائد عسكري وحليف للعائلة المالكة، فقد تزوج أرملة "أوزالسيس"، والتي هي قرطاجية من أقارب حنبعل، الأمر الذي فُهم منه أن زواج مكنه من كسب جزء من الأرستقراطية القرطاجية، فقتل "كابوسا"، ليقوم "مازيتول" بالدعوة ليكون "لاكومازيس Lacumazès" الأخ

الأصغر لكابوسا ليكون ملكا على المملكة وجعل من نفسه وصيا عليه، والذي كان أصغر سنا من "ماسينيسا"، هذا الحدث دفع هذا الأخير للبحث عن حليف يساعدة على استرجاع المُلك، فنقل معسكر خدماته من "قرطاجة" لروما.

تمثل سنة 206 ق.م سنة مفصلية في تاريخ بلاد المغرب وحوض المتوسط، ففي هذه السنة فقط القرطاجيون اسبانيا، وبدأ الرومان يفكرون في نقل الحرب إلى إفريقيا، ولإنجاح ذلك كانوا بحاجة لملك محلي يساعدهم عند نزولهم، جاء الاهتمام في البداية "بسيفاقس" باعتباره الأقوى، وهو ما لم يوفق فيه الرومان. هذا الضعف القرطاجي، المشروع الروماني، والقوة المازيسيلية ورفضها محالفة روما جعل "قرطاجة" تصب كل جهودها لكسب "سيفاقس" إلى صفها متناسية إبعاد "ماسينيسا" عن العرش لأن منشغلة بمواجهة تحدياتها الحربية. أمام هذا الوضع أحس "ماسينيسا" بأنه عليه التحرك لاسترجاع المُلك عبر عرض خدماته على الرومان، فاتصل بمساعد "سكيبيو" "سيلانوس Silanus" بغية الالتقاء به، وهو ما لم يحدث في المرة الأولى، ومع اقتناع الرومان باستحالة استمالة "سيفاقس" اضطروا للبحث عن طرف آخر. عاود "ماسينيسا" المحاولة، فطلب من قادته أن يخرج رفقة الجنود للنهب، وبالفعل أثناء هذا التقى بسكيبيو، فتبادلا عبارات القسم، عاد "ماسينيسا" وانتظر فرصة غياب القائد القرطاجي ليعود خفية إلى بلاد المغرب أين عبر على موريطانيا التي منحه ملكها "باغا" حوالي 4000 محارب لمرافقته ليصل إلى مملكته. هنا نتساءل: هل فعلا اتصالات "ماسينيسا" كانت بعد الانقلاب على "كابوسا" باعتبار أنها بدأت حسب "تيتوس ليفوس" في ربيع 206 ق.م؟، هل جاءت الاتصالات بدافع البحث عن حليف يساعده على استرجاع المُلك أم تحت تأثيرات الانتصارات الرومانية والسعي للتموقع السياسي؟، هل أصبح يؤمن بأن انهزام قرطاجة مسألة وقت وأن المستقبل والقوة لروما، لهذا غادر صفوف معسكر كتبت له الهزيمة؟، أما العكس تماما غادر معسكر "قرطاجة" إحساسا واعتقادا منه أن "قرطاجة" متواطئة في حرمانه من حقه في العرش وأنها تنكرت لحقوق الصداقة والشرعية؟. في الواقع هذه التساؤلات ليس من السهولة الإجابة عليها لغياب المادة، لكن دعونا نوضح عدة نقاط: ما الدليل الذي يؤكد أن "قرطاجة" متواطئة ومشاركة في حرمانه من الملك؟، ما هي احترازات "قرطاجة" على "ماسينيسا" حتى تتآمر عليه وهو يقاتل لجنبها؟، بالعكس من مصلحة قرطاجة الحفاظ على علاقات جيدة مع الماسيل والمازيسيل، في المقابل= اتصالات "ماسينيسا" بالرومان بدأت في ربيع 206 ق.م ولم يترسم التحالف السيفاقسي-القرطاجي إلا في سنة 205 ق.م، وبالتالي القول أن "قرطاجة" منحازة لسيفاقس على حساب "سيفاقس" غير مُؤسسة، وبطبيعة الحال جاء تشجيع "قرطاجة" لسيفاقس على التوسع على حساب الماسيل بعد تأكد التحالف الماسينيسي-السكيبيوني.

في نهاية المطاف عاد "ماسينيسا" إلى قومه، أين استطاع كسب أتباع له، وهو ما مكنه من استعادة الملك، فحاول "ماسينيسا" خلق تصالح مع "سيفاقس"، لكن حسب المصادر فإن "قرطاجة" استطاعت أن تنبه "سيفاقس" لخطر عودة "ماسينيسا" وتحالفه مع الرومان الذين يخططون لنقل الحرب إلى إفريقيا على مصير المنطقة وعليهما، فتحرك "سيفاقس" الذي اكتسح الأراضي الماسيلية، ما أجبر "ماسينيسا" إلى الفرار بجبال تقع بنواحي "عنابة" أين اتخذها قاعدة للنهب، فكلف "سيفاقس" قائده "بوكار" بملاحقته، والذي لاحقه واعتقد أن مات بعد أن رمى بنفسه في نهر كبير، وهو ما لم يحدث، فخرج "سيفاقس" مجددا في ملاحقته حيث هزمه ولم يُبق لماسينيسا سوى 60 فارس فر معهم إلى نواحي

طرابلس (الأصح هيبون) أين بقي ينتظر الرومان لنجدته. عند نزول "سكيبيو" التحق الرومان بهم على رأس قواته التي حسب البعض 200 فارس، وحسب آخرون 2000 فارس، وهو كل ما بقي معه من حلفاء. خلال الحرب البونيقية شارك "ماسينيسا" مع الرومان في معارك: أوتيكا، السهول الكبرى، قيرطا، و"زاما"، وبانتصار "روما" جاء موسم قطف الثمار.

2-1-ماسينيسا: ملك نوميديا (202-148 ق.م):

بعد حادثة "صوفونيزبا" ومعاتبة "ماسينيسا" على الزواج منها مع أدى لانتحارها جمع "سكيبيو" الجنود أين خطب فيهم شاكرا لماسينييسا ومنحه رسميا لقب "الملك Rex"، ما عُد بداية السيطرة على إفريقيا عبر الأفارقة أنفسهم. يورد لنا "تيتوس ليفوس" أنه بعدها مباشرة أرسل وفد يطلب تزكية مجلس الشيوخ حتى يطمئن على عرشه ويسترجع الأراضي التي كانت تحت حُكم والده، ما يعبر عن اعتقاد بأنه لا سبيل لوجوده ما لم ترض عنه روما، طبعا هذه الإشارات هي من مصدر لاتيني وعلينا دائما التعامل معها بحذر، مثلما علينا الحذر من الإشادة التي حظي بها من المؤرخ الاغريقي "بوليبيوس". هذا الدعم الروماني مكنه من إلحاق مملكة المازيسيل بأراضيه فظهرت نوميديا الموحدة، والتي توسعت أكثر مع توسعات ماسينيسا على "قرطاجة" ما بين 193-150 ق.م. خلال فترة حكمه أقام "ماسينيسا علاقات جيدة مع العالم الاغريقي وانفتح على ثقافته، وأصبحت نوميديا من أهم الدول المصدرة للحبوب، ما يعبر عن اهتمامه بالزراعة، فنمتلك أرقام عن شحنات القمح التي كان يرسلها "ماسينيسا" مجانا للرومان:1-200 ق.م: 14 ألف قنطار قمح و10.5 آلاف قنطار شعير، 2-198 ق.م: 14 ألف قنطار قمح، 3-191 ق.م: 56 ألف قنطا قمح و28900 قنطار شعير، 4-170 ق.م: 70 ألف قنطار قمح، كما سك عملات برونزية، نحاسية ومن الرصاص كتبت بالبونيقية، كما عمل على نقل "البدو الرحل" من حياة الترحال إلى الاستقرار.

قرر "ماسينيسا" وهو يشعر بدنو أجله سنة 148 ق.م دعوة "سكيبيو إيمليانوس" لاستشارته في تسوية وراثة العرش، وعندما عرف أن الروماني سيصل متأخرا قرر أن يترك له اتخاذ التدابير التي يرى أنها الأفضل في هذا الشأن، فتنازع المؤرخون حول الغرض من هذا الاستدعاء؟، وهل يتناقض مع الصورة الممجدة لماسينييسا عند مؤرخينا وحتى عند بعض مؤرخي المدرسة الفرنسية، وهل يمكن التشكيك في تلك الصورة وهذا الحدث؟. في هذا الصدد كتب "غزال": "**لقد ختم "ماسينيسا" حياته بنوع من الاعتراف بأن مصائر نوميديا تتوقف على الرومان**"، وهو أكثر من اعتراف بالعجز والخضوع، فبهذا القرار لم يتصرف "ماسينييسا" كحاكم سيّد بل تصرف كما لو أنه مجرد حاكم مفوض من روما. في الواقع لا يمكن نفي تحكيم "سكيبيو إيمليانوس" (ومن المُحتمل أنه تقرر مسبقا في روما) واعتباره أسطورة: فالنصوص أساسية ولا تتضمن أية تناقضات، وفعلا تمت تسوية العرش في الواقع من قبل الرومان على يد "سكيبيو إيمليانوس" حفيد "سكيبيو الإفريقي" الذي نصبه كملك. إذن "ماسينيسا" الذي حكم نصف قرن، وعمل على تمدين شعبه وتنظيم المملكة لم يكن حسب "غزال": "**الملك القوي الأعظم من بين كبار حكام البربر (النوميد)**"، لأنه في عملية اختياره وريثه لم يُقدم على فرض رأيه بالقوة على عائلته، بل-ودون اتخاذ هذا الاجراء جهرا-سلّم مصائر المملكة لاختيار وتحكيم الروماني. هذه النهاية الصعبة كونت مع مشهد آخر ألما مزدوجا: ماسينيسا في عمر السادسة والثلاثون حيث لا يزال بعد في

قوة وحمية الشباب يُضحي في سبيل الصداقة الرومانية بالمرأة التي أحب والتي استردها مع عاصمته في نفس الوقت، إنها حلقة "رومنسية"، ولكن كم هي بالغة الرمزية، ألم تكن محن "صوفونيزبا" قد وقعت قبل أن يبدأ "ماسينيسا" حكمه وأن أي مسعى دون موافقة روما سيكون دون جدوى.

هنا نتساءل: هل كانت عظمة "ماسينيسا" في خضوعه العبودي لإرادة روما؟، هل ماسينيسا هو من استغل روما لاسترجاع الملك وبناء مملكة قوية أم أن روما هي من استغلته للدخول لبلاد المغرب، هزم قرطاجة ومن ثمة إضعافها خلال سنوات 193-150 ق.م عبر تلك التوسعات؟. الحقيقة أن "ماسينيسا" لم يكن بمقدوره أن يواجه القوة الرومانية بقوة السلاح، لكن الحاكم المُنقاد لن ينال تعاطف أحدا أبدا، والمُعجبون والمدافعون عن "ماسينيسا" مثلما يقفزون على أحداث عديدة في مساره فإنهم يقزون سريعا على هذين الحدثين المُروعين في فترة حكمه الطويلة.

2-2-نوميديا بعد "ماسينيسا" 148-46 ق.م:

تُوفي ماسينيسا تاركا السلطة لثلاثة من أبناءه الشرعيين من ضمن أولاده الكثيرون الشرعيون والغير شرعيون، أكبرهم "مكيبسا"، والذي كان من المفروض وفق التقاليد هو من تؤول له السلطة، وقد ذكر لنا "زوناروس" أن ماسينيسا قبل وفاته منحه خاتمه، وهو نوع من تقليد العرش، فلماذا لم يعينه علانية كوريث له؟. قدمت ثلاثة أسباب قد تكون وراء هذا: الأول يتعلق بضعف شخصية "مكيبسا" لأن أبيانوس قال عنه أنه ذو شخصية مسالمة، واعتبره "غزال" ضعيف الشخصية يفتقر للقوة لأنه تبّنى في وقت لاحق "يوغرطة"، ولعل "ماسينيسا" وهو يشرك في السلطة معه أخويه، وخاصة "غولوسا" الميال للمغامرة كان يسعى لتجنيب المملكة صدامات تضر بوحدتها. لكن في الواقع، ما من حادث في فترة حكم "مكيبسا" يثبت أنه كان دون مستوى المهام المنّوط بها، وعلى العكس عرفت المملكة في عهده ازدهارا، ولا يبدو أن المملكة واجهت مصاعب كبيرة، لهذا فلا شيء في شخصه يسوغ إذن القرار الأبوي بتقليص سلطته. السبب **الثاني** هو أن الحل الفضولي المُتبنى في شأن خلافة "ماسينيسا" قد يكون نوعا من الفيتو الذي أصدره مجلس الشيوخ قبل وفاة "ماسينيسا"، فلا يمكن أن نصدق في واقع الحال أن "ماسينيسا" وروما انتظرا لآخر للحظة لكي يتركا لسكيبيو ايمليانوس مهمة الارتجال بحل خطير كهذا، لهذا فإنه من الممكن أن القرار اتخذ منذ وقت طويل في "روما" وبقي سرا وماسينيسا وهو على فراش المرض ترك أمر تنفيذه لسكيبيو. **ثالثا:** لا نعرف موقف رؤساء القبائل من هذه العملية التي تجاوز بها "ماسينيسا" التقاليد النوميدية، لهذا راح يعتقد البعض أن هذا التقسيم ربما هو مستمد من التقاليد الليبية، فقد لوحظ أن هنالك مدن كمكثر وألثيبورس محكومة من ثلاثة أشفاط، وأن الاتحاد القيرطي (كيان سياسي روماني يضم ثلاث مدن: قيرطا، القل، سكيكدة وميلة) سُير من قبل ثلاث قضاة بلديين، وهذا عكس القرطاجيون والرومان الذين يعهدون بإدارة المدينة إلى هيئة مُكونة من اثنين (duumviral)، وعبر مقاربة هذا مع التقسيم الثلاثي للسلطة من قبل "ماسينيسا" فإنه يمكن القول أنه حدث "نقل أو ترفيع لتنظيم بلدي إلى مستوى الملكية"، لكن من هو صاحب الفكرة والاقتراح: هل هم الزعماء المحليون لإرضاء طموحاتهم المحلية أم كانت وراءه أغراض خبيثة للسلطة الرومانية؟.

مهما تكن الأسس أو الأسباب السياسية التي أقيمت عليها هذه السلطة الجماعية على رأس المملكة فإنها "هيبة" ماسينيسا لا تصمد أمام فحص الظروف التي تبنى فيها هذا الحل، فإن كان هو صاحب الفكرة فلِم لَم تكن لديه قوة الشخصية لجعلها معروفة لدى أبنائه أو فرضها عليهم، وإن كانت قد أُمليت عليه من روما فقد قبلها ولم يحاول استباق الزمن بالإعلان قبل وفاته أنه يريد وريثا واحد لعرشه، وإن كان القرار مفروضا من قبل الأمراء أو شيوخ القبائل فإنه سطلته كانت حينها ضعيفة، ولعل العاهل وقد تقدمت به السن كان متخيلا وواعيا بالضعف الداخلي للمملكة والمصاعب الناتجة عن الشروط الرومانية، وهو الذي كان شاهدا على أساطيل روما وهي تحاصر الجارة "قرطاجة"، فقرر ترك مصير سلالته بين أيدي "سكيبيو إيمليانوس"، الحفيد بالتبني لذلك الذي بعد انتحار "صوفونيزيا" حيّاه باسم الملك (سكيبيو الإفريقي). إذن بقرار أو بموافقة من "سكيبيو إيمليانوس" أصبح "مكيبسا" على رأس المملكة (الحكومة المدنية)، "غولوسا" وهو الأصغر (كان في الأربعين على الأقل) بقي على رأس الجيش، أما صلاحيات "مستنبعل" فهي أقل وضوحا، فقد تلقى وظيفة السلطة العدلية، وهو منصب ليس ذو أهمية، وقد يكون أيضا مكلف بالجباية الضريبية والشؤون المالية للمملكة، باعتباره الأعلى ثقافة بين إخوته. حمل هؤلاء الثلاثة لقب "الملك"، لكن توفي الأخوين في ظروف غامضة بشكل مؤكد سنة 140 ق.م، وبقي "مكيبسا" يحكم لوحدة لغاية سنة 118 ق.م.

فترة حكم "مكوسن=مكيبسا" احتفظ فيها بالعلاقات الجيدة مع الرومان التي دشنها والده، فقد التزم بتوفير الوحدات القتالية، الفيّلة والمعدات لجيش الجمهورية، كما كانت علاقاته طيبة مع الجار الموري، ويبدو أن "إيول=شرشال" قد تحولت إلى عاصمة جهوية في عهده، كما أظهر إعجابا أكبر بالحضارة الهيلينية، فتزايد النمط المعماري الاغريقي بالعاصمة قيرطا ومعه الجالية الأجنبية، فقد كان عدد التجار الايطاليون على ما يبدو كافيا لضمان حماية "لأذربعل" عند محاصرة "يوغرطة" لقيرطا، والتي أدى قتلها لاندلاع حرب يوغرطة. توسع التمدن في عهده فخرجت إلى النور مدن منها "باجة" و"دوقة" على الخصوص، وكذلك "تالة" وقفصة، وفي نوميديا الشرقية نشأت قلاع محصنة تضم خزائن الملك المملوءة بأموال الضرائب والرسوم، وانتعش تداول العملة واتسعت الفلاحة والأسواق، لذلك يُمكن القول أن فترة حكمه تعد الأكثر إشراقا ونفعا للعائلة الملكية النوميدية.

قبيل وفاته ترك "مكيبسا" وصية انتقل الحكم عبرها إلى ابنيه "أذربعل" و"هيمبسال"، وابن أخيه "يوغرطة" الذي تبناه، ما فتح الباب على أزمة حكم مماثلة نسبيا لتلك التي حدثت عند وفاة "ماسينيسا"، وهذا بلا شك نتيجة غياب مؤسسات قارة وقوانين تنظيمية، وهو ما يكشف في الواقع ضعف المملكة التي لم تصل لشروط الدولة قبل "ماسينيسا" وبعده. مثلما لم يحاول "ماسينيسا" ترك السلطة لأحد أبناءه، كذلك فعل "مكيبسا" الذي تبنى "يوغرطة" رغم أنه ابن شرعي مفضلا إياه على "غودا Gauda" الشرعي الذي كان ضعيفا في بدنه وفي عقله (لكنه سيتولى الحكم منذ 105 ق.م). شرح لنا "سالوستيوس" دوافع "مكيبسا" من تبنيه ليوغرطة: الخوف الذي توجسّه من هذا الرجل المغامر، الرأي العام الإيجابي اتجاه "يوغرطة" خاصة بفضل الصداقات التي أقامها مع عديد الشخصيات الرومانية عندما حارب إلى جانبهم في إسبانيا، ما جعل "سكيبيو إيمليانوس" يوصي عليه. على أنه إذا تأملنا جيدا، فإن التبرير المُقدم من "سالوستيوس" غير مقنع، لأن "مكيبسا" لو أراد التخلص نهائيا من "يوغرطة" لفعل حتى قبل إرساله إلى "نومانسيا" (إسبانيا)، وإذا تبناه بموافقة

وتوصية من روما فلأنه كان يعتقد أنه أحسن صنعا، فقد كانت كفاءته العسكرية تحض الملك على توزيع المهام بينه وابنيه، بحيث تكون قيادة الجيش ليوغرطة، أما الوظائف المدنية فتكون مناصفة بين "آذربعل" و"هيمبسال".

لا شيء سُويّ في واقع الحال، ولم يكن في ذهن "مكيبسا" سوى توزيع الملكية وليس المملكة، ويشير "سالوستيوس" بدقة أنه في الاجتماع الذي أعقب وفاة "مكيبسا" قرر الملوك بعد الفشل في توزيع السلطات على اقتسام الكنوز وأن يحددوا الإقليم الذي سيحكمه كل واحد منهم، وبالتالي اعتبر قرار اقتسام المملكة الحل الأسوأ. "يوغرطة" لم يعجبه هذا ورفض "هيمبسال" له دفعاه لاغتياله سنة 118-117 ق.م، لتتحول وراثة العرش ليوغرطة وآذربعل، اللذين تدخلت روما وأجرت بينهما التقسيم: نوميديا الشرقية منحت لآذربعل، وهي الأكثر عمرانا وتطورا حتى من جارتها مقاطعة إفريقيا الرومانية، أما نصيب "يوغرطة" فكان أوسع ولكنه ذو طابع ريفي، تشغله قبائل أكثر حركة، وهو على الأقرب أراضي المازيسيل التي بعثت من جديد، عاصمة الأولى هي "قيرطا"، في حين عاصمة "يوغرطة" هي إما "سيقا" أو "إيول". هذا التقسيم لم يُرض "يوغرطة" الذي سرعان ما نظم صفوفه واجتاح مملكة "أذربعل" أين فرض حصارا على "قيرطا" تمكن فيه من اقتحام المدينة أين قتل ابن عمه ومعه الجالية (التجار) الإيطالية المتواجدة بالمدينة، وهو ما أدى لاندلاع حرب يوغرطة (112-105م) التي عين الرومان أربعة قناصلة لإخمادها: "بستيا" (L. Calpurnius Bestia)، "ألبينوس" (A. Postumius Albinus)، "ميتيلوس" (Q. Caecilius Metellus)، وأخيرا "ماريوس Marius" الذي عبر الخديعة التي شارك فيها ملك موريطانيا "بوخوس الأول" تم إلقاء القبض على "يوغرطة" رفقه ابنيه واقتيادهم لروما أين توفي في سجونها.

مثلما تُثار ظاهرة الرشوة في حرب "يوغرطة" تثار أيضا مسألة هدف يوغرطة من هذه الحرب؟. في الواقع، ما من دليل يؤكد أنها يوغرطة استهدف بهذه الحرب السيطرة الرومانية على بلاد المغرب، ولا كانت كحرب مُعارَضة للتصور الروماني لممالك تابعة بفكرة مملكة نوميدية قوية وحرة، بل كل ما كان يريده هو استعادة الوحدة النوميدية والعودة بها إلى ما كانت عليه في عهد جده وعمه "مكيبسا"، أو لنقل أن يحكمها لوحده، وهو ما كان سينجح فيه لولا قتله للتجار الايطاليون، فالرومان لم يعترضوا من قبل على ضم "بوخوس الثاني" لأراضي أخيه "بوغود الثاني"، غيّر أن "يوغرطة" ربما لم يقدر الأمر جيدا وأراد تجاوز (أو نكران) التأثير الروماني على المملكة، لتضعه بذلك الظروف في ذات الطريق الذي وضعت فيه "سيفاقس" من قبل، وهو طريق صراع طويل بين طرفي نوميديا عبر الأجيال، وما الحكام الذين تعاقبوا على حكم نوميديا سوى منفذي أدوار لا مفر لهم منها، وكان بإمكان روما أن تجعل منهم "**إخوة أعداء**" وقتما تشاء.

كان من نتائج حرب "يوغرطة" بداية تناقص التراب النوميدي، فملك موريطانيا كوفئ على مساعدته بنيل ثلث أراضي نوميديا (من وادي ملوية لغاية وادي الصومام، أو ربما وادي الشلف). خلف "غودا" يوغرطة على حكم ما تبقى من نوميديا، وبعد وفاته نجد أن نوميديا أصبحت مقسمة بين "هيمبسال الثاني" (ابن غودا) المعروف بميوله العلمية وتأليفه لعديد المؤلفات باللغة البونيقية، وأخيه "ماستيبارMasteabar=مستنبعل الثاني"، ومغامر أو أمير يُدعى "هيرباص" الذي لا نعرف علاقته بغودا. الهام أن هؤلاء الثلاثة برزوا في الحرب الأهلية الرومانية الأولى (88-82 ق.م) التي جمعت بين "ماريوس" وسيلا"، ففي 88 ق.م دعم "هيرباص" ماريوس، في حين وقف ابني "غودا" مع "سيلا". خلال المرحلة الأولى

انتصر "ماريوس" ما أدى لإبعادهما من الحكم وسيطرة "هيرباص" على السلطة، في المرحلة الثانية أي سنة 82 ق.م تمكن "بومبيوس" (قائد تابع لسيلا) بعد النزول في افريقيا من هزم أنصار "ماريوس" وهيرباص، وإعادة الأخوين للحكم، فحكم "هيمبسال" نوميديا الشرقية، في حين حكم "ماستيبار" نوميديا الغربية.

بالتزامن مع الحرب الأهلية الثانية (49-45 ق.م) بين "يوليوس قيصر" (حزب الشعبيين) و"بومبيوس" (حزب الأشراف) وجدت هذه الممالك المحلية نفسها متورطة في الحرب: وقف "يوبا الأول" ابن "هيمبسال الثاني" و"ماسينيسا الثاني" ابن "ماستيبار" أنفسهم مع البومبيين نظرا لموقف شخصي حدث بين "يوليوس قيصر" و"يوبا الأول" ولأن البومبيون وعدوا "يوبا الأول" بمنحه مقاطعة إفريقيا بعد الحرب، في حين وقف ملكي موريطانيا "بوخوس الثاني" و"بوغود الثاني" مع "يوليوس قيصر". الحرب انتقلت لإفريقيا في سنة 49 ق.م أين أرسل "يوليوس" مساعده "كوريون Curion" والذي هُزم وقتل، ثم نزل "يوليوس قيصر" سنة 47 ق.م أين خاض معركة فاصلة ضد "البومبيين" وحلفاءهم النوميديين تدعى "معركة "تابسوس" 46 ق.م (لم يشارك فيها يوبا الأول" لانشغاله بصد هجمات الملوك المور والمرتزق "سيتيوس")، انتصر "يوليوس" وانتحر "يوبا الأول"، فسقطت بذلك النوميدتين بشكل نهائي: أراضي يوبا الأول حولت لمقاطعة رومانية عرفت باسم "إفريقيا الجديدة Africa Nova" التي كان المؤرخ "سالوستيوس" أول حكامها، في حين أراضي "ماسينيسا الثاني" منحت لبوخوس الثاني الذي وسع مملكته لغاية الوادي الكبير، في حين تحصل المرتزق "سيتيوس" على أراضي أصبحت تعرف بالاتحاد القيرطي. بهذا بدأت نوميديا موحدة، اكتملت مقسمة، وانتهت فريسة للرومان وجيرانهم الموريطانيين.

في الأخير: حكمت سلالة الملوك الماسيل نوميديا من وفاة "ماسينيسا" إلى وفاة يوبا الأول سنة 46 ق.م قرنا كاملا، وهي فترة حكم ساهمت في ذلك الازدهار التي شهدته مقاطعتي إفريقيا البروقنصلية ونوميديا الرومانيتين، فخلال هذه المائة سنة تنظمت المملكة ونالت قسطا من التحضّر يفوق التقدم الذي شهدته المقاطعة الرومانية التي كانت تحكم الجمهورية الرومانية، وبلا شك فإن خلفاء "ماسينيسا" لو كانوا عاجزين تماما عن الحكم لتفككت المملكة بل كانوا يمتلكون من النظرة والتخطيط ما طور المملكة، فقد تقدمت الفلاحة طيلة حكم "ماسينيسا" وهي ليست من اختراعه كما يدعي البعض، لكن هذا لا يلغي سؤالا جوهريا يتعلق حول أي اسهامات حضارية حقيقية قدمها الملوك النوميد في المنطقة المغاربية؟.

3-مملكة "موريطانيا":

لا نعرف الشيء الكثير عن مملكة الموريين، وهذا الغموض يمتد كذلك لفترة ما بعد "ماسينيسا، على أن وحدة الاسم الذي حمله ملوكها لغاية وفاة "بوغود" وتشابه أسمائهم (باقا، بوخوس، بوغود) يدفع للاعتقاد بأن هذه الأسرة هي من حكمت من أواخر القرن الثالث إلى نهايتها مع "بوخوس الثاني". كانت هذه الأسرة تسيطر في القرن الأخير قبل الميلاد على أقاليم ممتدة على أقل تقدير إلى الأطلس، وإلى حد أن "بوغود" قاد حملة لمحاربة الأثيوبيين حسب "سترابون"، وهي إشارة لا تسمح لنا بتأكيد أن مملكة "باقا" كانت بذات الاتساع، وربما لم تكن لجهة المضيق (جبل طارق). أول ملك تم ذكره

لهذه المملكة هو "باغا Baga" الذي وضع تحت تصرف "ماسينيسا" 4000 رجل لمرافقته خلال مروره من مملكته عائدا إلى بلاد الماسيل سنة 206 ق.م، وهي إشارة تؤكد بأنه لم يكن مُليك (ملك لدولة صغيرة) بل كان يسيطر على الأقرب المنطقة الممتدة من الأطلسي لوادي ملوية، ويبدو أنه ظل صديقا لماسينيسا وأرسل وحدات أخرى شاركت في الحرب البونيقية الثانية.

بعد فترة صمت نجد "سالوستيوس" يحدثنا عن الملك "بوخوس" في حوالي 110 ق.م حيث كان حليفا وصهرا ليوغرطة، وبعد انهزامه مرتين أمام الرومان بقيادة "ماريوس" استطاع "سيلا" الاتفاق معه واقناعه بخديعة القبض على "يوغرطة"، فخان حليفه وساعد الرومان في القبض عليه، وتحصل نظير ذلك على ثلث مملكة نوميديا ولقب "حليف وصديق الشعب الروماني"، ويرجح أنه استمر في الحكم لغاية قبيل سنة 80 ق.م. في هذه السنة نكتشف أن المملكة المورية لم يكن لها تنظيم مركزي، فقد كان يحكم "طنجة" وإقليمها مُليك اسمه "أسكاليس Ascalis" الذي كان حليفا أو تابعا للملك "بوخوس الأول"، وكان لأسكاليس أهمية على الصعيد المتوسطي بحكم موقع إمارته فقد تلقى دعما من أنصار "سيلا" المسيطرين حينها على إسبانيا لمحاربة رعاياه المتمردين، ولكن "سرتُروس Sertorius" المناصر لماريوس أزاحه من السلطة، وهذا الحدث قاد "كاركوبينو" إلى استنتاج أن "طنجة" حافظت دائما على وضع خاص بها وعلى استقلال تقليدي. بعد وفاة "بوخوس الأول" انتقل الحكم إلى ابنه "سُسوس =ماستانيسسوس (Sosus/Mastanesosus" التي حكم ما بين 80-49 ق.م، ولم نتعرف عليه سوى بفضل أربع عملات مكتوبة باللاتينية، كما ورد في خطاب "شيشرون" المؤرخ بسنة 57 ق.م حينما مر القائد الروماني "بوبليوس واتينيوس" على مملكته في تلك السنة. عند وفاته قسمت المملكة بين ابنيه "بوخوس الثاني" (49-33 ق.م) الذي حكم "موريطانيا الشرقية" الممتدة ربما من وادي ملوية لوداي الصومام (flumen sava)، في حين "بوغود الثاني" (49-38 ق.م) فقد حكم "موريطانيا الغربية الممتدة بين وادي ملوية" والمحيط الأطلسي، والتي عمل على توسيعها جنوبا أين وصل كما أشرنا لبلاد الأثيوبيين. برز الأخوين عبر المشاركة في الحرب الأهلية الرومانية الثانية إلى جنب "يوليوس قيصر"، فهاجما مملكة "يوبا الأول" من الغرب ووصلوا لغاية مدينة "قيرطا". عند نهاية الحرب توسعت مملكة "بوخوس الثاني" أكثر أين وصلت للوادي الكبير. شارك "بوغود الثاني" بعدها إلى جانب "يوليوس" في معركة "موندا Munda" بإسبانيا (كانت زوجته "إينوي Eunoe" إحدى عشيقات يوليوس قيصر خلفا لكليوباترا السابعة)، لكن بعد اغتيال "يوليوس قيصر" اختار "بوغود" دعم "ماركوس أنطونيوس" صديق يوليوس، عكس أخيه "بوخوس" الذي دعم "أوكتافيوس" ابن "يوليوس"، ما أدى لنشوب النزاع بين الأخوين، فهاجم "بوخوس" مملكة "بوغود" مستغلا تواجده في اسبانيا، ما أجبره على الفرار إلى الشرق أين توفي باليونان سنة 31 ق.م، فوحد بذلك "بوخوس" موريطانيا من جديد وظل يحكمها لسنة 33 ق.م سنة وفاته دون أن يترك وريثا من بعده، لذلك ترك وصية تنازل فيها عن "موريطانيا" لأوكتافيوس الذي أدار شؤونها عبر حاكم روماني وحاكم آخر محلي موالي للرومان لغاية سنة 25 ق.م تاريخ تعيين "يوبا الثاني" على رأس المملكة.

مثلت "موريطانيا" هي الأخرى مركزا هاما لانتشار الحضارة البونيقية، فقد كان للقرطاجيون عديد الموانئ سواء على الواجهة المتوسطية أو الأطلسية، فالمدينة المورية "قصر فرعون Volubilis" انتشرت بها اللغة والكتابة البونيقية،

ونظام الأشفاط منذ ربما القرن الثالث قبل الميلاد. إلى جانب هذه المدينة نجد مُدن مورية أخرى بعضها من تأسيس الفينيقيون: "ليكسوس (العرائش)، "ثرينكي Thrinké"، طنجة، موقادور، إمسا Emsa، سيدي عبد السلام، تامودة، سيدي علي بوجنون Banasa.

بعد حوالي 08 سنوات من خلو العرش الموريطاني قام "أوكتافياس أغسطس" بتنصيب "يوبا الثاني" كملك على موريطانيا سنة 25 ق.م، فمن يكون؟. يُعد هذا الملك أحد أشهر الملوك الموريين بطول مدة حكمه وبإسهاماته العلمية، فيوبا الثاني هو رجل علم ومعرفة أكثر منه سياسي وعسكري. هو ابن "يوبا الأول" آخر ملوك نوميديا، ولد ربما في نواحي 52 ق.م. عندما انتصر "يوليوس قيصر" في" تابسوس" دخل إلى "زاما" عاصمة "يوبا الأول"، هنالك وجد "يوبا" الصغير وعمره 4-6 سنوات، فحمله معه إلى "روما" كرهينة أين ظهر في موكب النصر خلف القائد الغالي "فرسن جتريكس" و"أرسينوي الرابعة" أخت "كليوباترا السابعة"، هنالك في روما تربى "يوبا الصغير" ضمن العائلة الإمبراطورية حيث تكفلت "أوكتافيا" أخت "أوكتافيوس" تربيته على الطريقة الرومانية (أو ربما على يد "كالبورنيا" آخر زوجة ليوليوس قيصر)، أين تعلم وأتقن اللغتين اللاتينية والإغريقية، وسرعان ما أظهر "يوبا" فطانته وذكاءه وأثار اعجاب حاميه "أوكتافيوس" الذي أعطاه فرصة التميز والارتقاء، ومنحه حق المواطنة ما أكسبه اسم ولقب سيده: "غايوس يوليوس يوبا Gaius Iulius Iuba"، والتي نقلها بدوره فيما بعد إلى مُعتقيه. شارك على الأقرب في حملات "أوكتافيوس" بالشرق في سنوات 31-29 ق.م ضد "كليوباترا" و"ماركوس أنطونيوس"، وأيضا في الحملات بإسبانيا في 26 ق.م، ونظير وفاءه تمت مكافأته بتعيينه على رأس مملكة "موريطانيا" سنة 25 ق.م الأمر الذي جوبه برفض محلي وعديد الثورات للجيتول تدخل الرومان عديد المرات لإخمادها وتوطيد حكمه وفرضه على ساكنة المملكة. في 19 ق.م تزوج من "كليوباترا سيليني (القمر)" ابنة "كليوباترا السابعة" ملكة مصر و"ماركوس أنطونيوس" حيث شاركته في حكم وإدارة المملكة الواسعة الممتدة من الوادي الكبير شاملة ربما طبنة وبسكرة وصولا للمحيط الأطلسي، وخلالها أسست بأراضي المملكة عديد المستوطنات الرومانية تمتد من الأطلسي غربا إلى الوادي الكبير شرقا.

كرس "يوبا الثاني" أغلب وقته للجانب العلمي والأدبي والعمراني، فاتخذ من "شرشال" عاصمة له وحول اسمها من "إيول" إلى "قيصرية" كإهداء إلى حاميه "أوكتافيوس" الذي رباه، وسع مساحتها ووضع لها سور، وراح يشيدها على الطريقة الرومانية والاغريقية: ساحات، مسارح، حمامات، معابد، حدائق عمومية، مزودة بالنحت وهندسة معمارية راقية، وأضاف لها المكتبة، فقد عرف عنه حبه جمع التحف الفنية والمؤلفات العلمية، والتي منها انطلق في عملية الكتابة حتى أصبح يُعد أكثر العلماء شهرة في زمنه، لكن للأسف فقدنا مؤلفاته التي كتبها بالإغريقية، ولم نتعرف عليها إلا عبر إشارات نقلها لنا "بلينوس الأكبر" الذي وصفه قائلا: "سُمعته كعالم لا تمحى من الذاكرة أكثر فترة حكمه"، في حين اعتبره "بلوتارخوس" بأنه أعظم المؤرخين الإغريق. مكتبته الذي بنيت على الطريقة الهلنستية جمع فيها المؤلفات والمصنفات، وراح يرسل النساخين إلى كبرى المكتبات لجلب مختلف المؤلفات والوثائق. كتب "يوبا الثاني" في قضايا عديدة: فقه اللغة (philologie)، المسرح، الشعر، الرسم، علم النباتات، كتب مؤلفات عن تاريخ روما، تاريخ الأشوريون، بلاد العرب (Arabica) الذي أهداه لغايوس الصغير، والذي جاء ضمن مشروع خريطة "أغريبا" الهادف لمعرفة العالم المسكون

واحتلال أراضي العرب، كما كتب عن تاريخ ليبيا (Libyca)، ويبدو أن استند فيها على المؤلفات التي كانت متوفرة في مكتبة قرطاجة، قاد كذلك رحلات استكشافية نحو جزر الكناري، وراح يبحث عن منبع نهر النيل.

توفي سنة 23م أين ترك معلم معماري لا يزال قائم ليومنا يعرف بالضريح الملكي الموريطاني (قبر الرومية) في بلدية سيدي راشد (ولاية تيبازة). هذا الضريح شيد على الأقرب من قبله كإهداء لزوجته كليوباترا التي توفيت سنة 05م، والتي أنجب معها "بطليموس" "ودروسيلا Drusilla"، وخاض ربما يوبا الثاني تجربة زواج ثانية من "غلافيرا Glaphyra"، وهي أميرة من "كبادوكيا" (أمر غير مؤكد تماما)، كان مصيرها الفشل (الزواج).

عند وفاته انتقل الحكم إلى ابنه "بطليموس الثاني" الذي ولد في نواحي 13-09 ق.م، وحكم ما بين 23-40م، وهو آخر ملوك موريطانيا. جمع "بطليموس "هو الآخر بين الثقافتين الاغريقية واللاتينية. لم يكن بشخصية وعلم والده على حد ما ذكر "تاكيتوس"، لكن هذا لم يمنع من اهتمامه بالعلم، الادب والفنون، وكانت له علاقات جيدة مع العالم الاغريقي حيث رفعت له ولوالده تماثيل في الملعب الرياضي (gymnase) بأثينا، وهو بدوره أهدى تماثيله للأكروبوليس بأثينا، وكرمه الأثينيون وعائلته بعديد النقوش ما يظهر التفاعل القوي بينه والعالم الاغريقي. تزامنت السنوات الأخيرة من حكم والده وبداية حكمه باندلاع ثورة "تاكفاريناس" 17-24م أين وقف خلالها الأب والابن لجانب الرومان ودعموهم بالفرسان والمؤونة، وخلدوا انتصارات روما بعديد العملات الاحتفائية، وبعد نهاية الحرب تم تكريمه بصولجان من العاج، ومنح له لقب صديق وحليف الشعب الروماني. تزوج من "يوليا أورانيا Iulia Urania"، التي هي إما معتقة إغريقو-سورية"، أو على الأرجح أميرة من العائلة الملكية لمدينة "حمص" السورية"، وأنجب معها "دروسيلا الثانية".

ظل يحكم موريطانيا لغاية سنة 40م أين استدعي إلى روما من قبل الإمبراطور "كاليغولا"، الذي استشاط غضبا وأحس بالإهانة لما دخل عليه "بطليموس" وهو يرتدي معطف ذو لون أرجواني، وهو لون إمبراطوري (لا يحق إلا للأباطرة لباسه أو موظفي الطبقة السيناتورية). بعد نهاية عروض المصارعين أرسل "كاليغولا" جنودا في أعقابه أين قاموا باغتياله في "ليون" وتم إلحاق موريطانيا بالإمبراطورية الرومانية. طبعا الدافع العميق لاغتياله لم يكن المعطف الأرجواني، وليس الغيرة من ثراءه وشعبيته كما ذهبت المصادر بل هي دوافع اقتصادية بالأساس تقوم على تنشيط الحركة الاستيطانية والاستغلال المباشر للمملكة التي تزايدت ثروتها. أعقب هذا الاغتيال اندلاع مقاومة بقيادة "آيديمون" أحد مُعتقي "بطليموس"، والتي انتهت بالفشل وتقسيم المملكة سنة 42م إلى مقاطعتي: موريطانيا القيصرية والطنجية، وكلاهما مقاطعتين إمبراطوريتين.

للاطلاع على تفاصيل أكبر حول هذا الموضوع يُرجى العودة إلى:

-"غابريال كامبس": البربر ذاكرة وهوية، وكتاب في أصول البربر: ماسينيسا أو بدايات التاريخ. -فتيحة فرحاتي: مملكة نوميديا. -محمد الهادي حارش: مملكة نوميديا. محمد البشير شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م-40م).

-الملاحق الايضاحية:

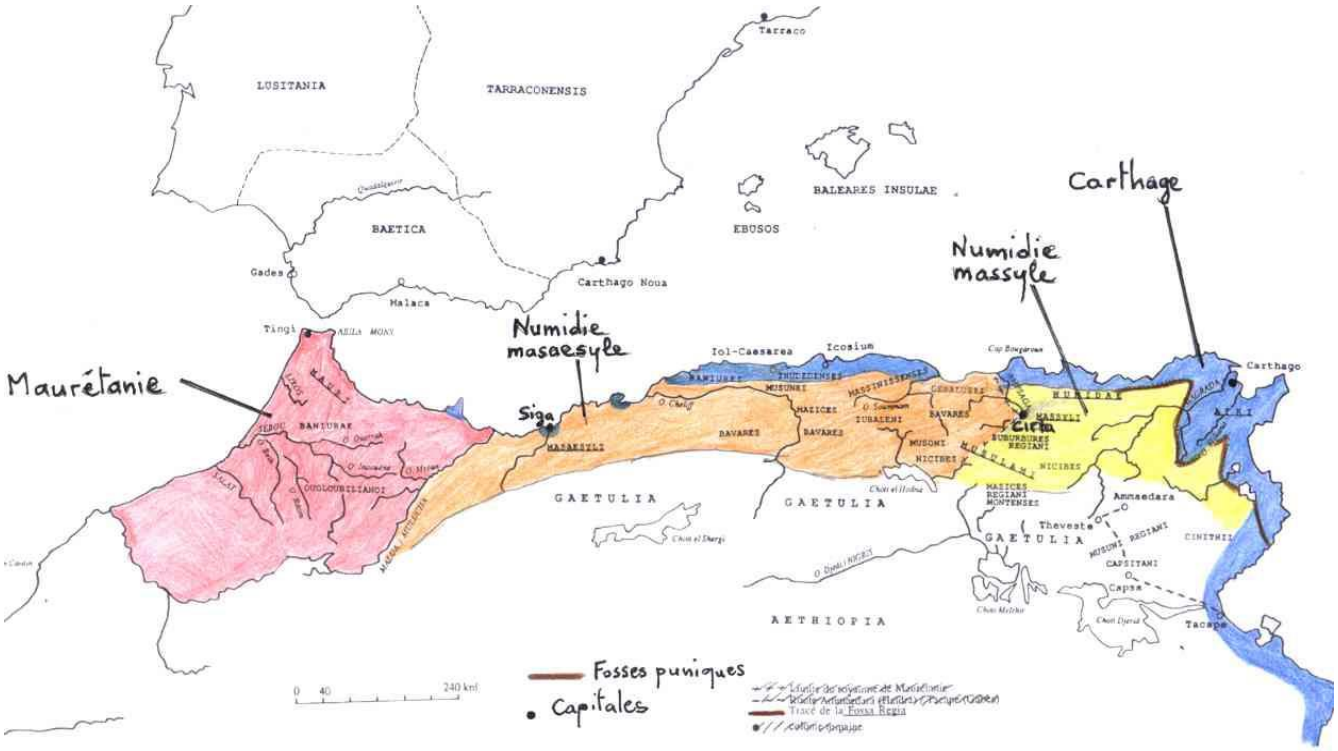

الخريطة السياسية للمغرب القديم عشية الحرب البونيقية الثانية

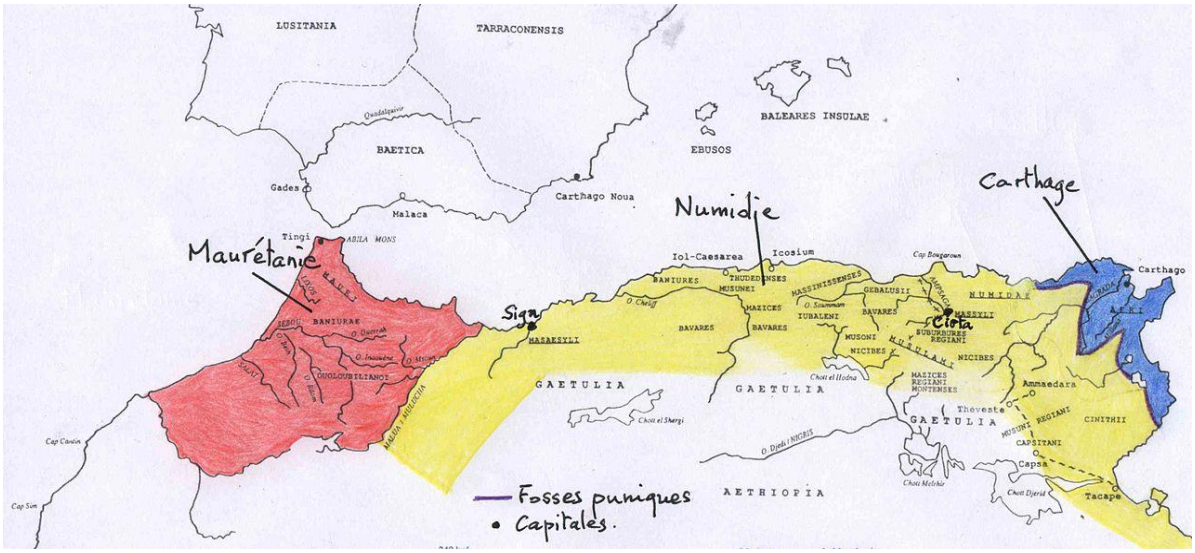

الخريطة السياسية للمغرب سنة 148 ق.م

عملة الملك "سيفاقس"

عملة الملك ماسينيسا

الملك بطليموس

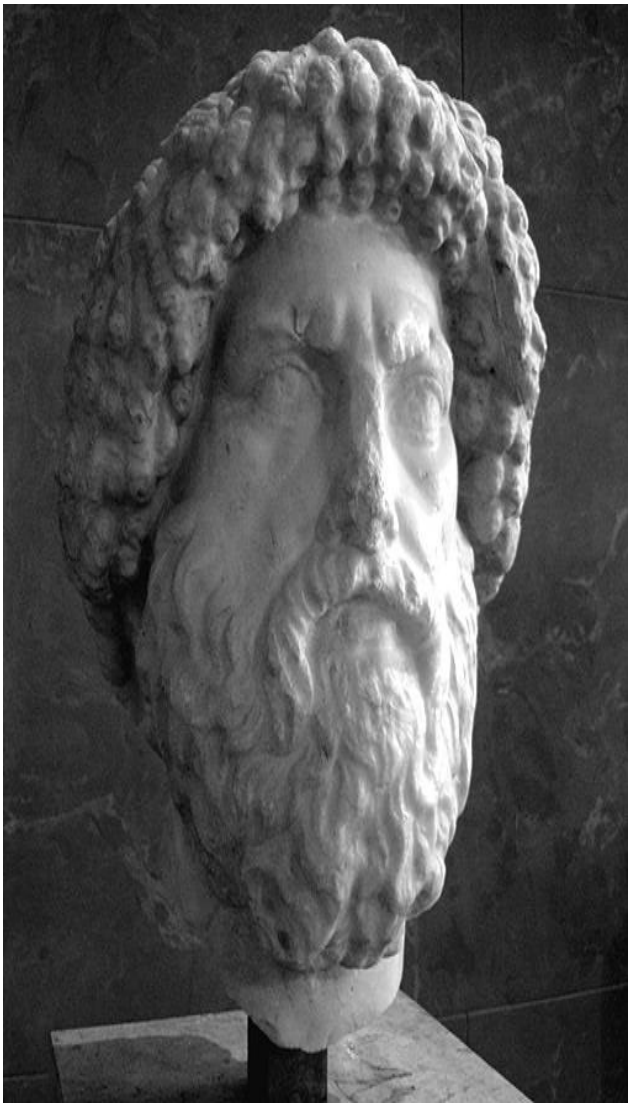

الملك يوبا الأول

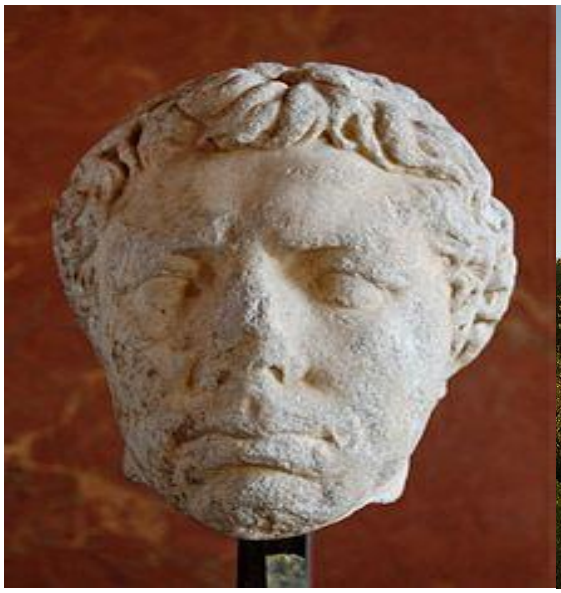

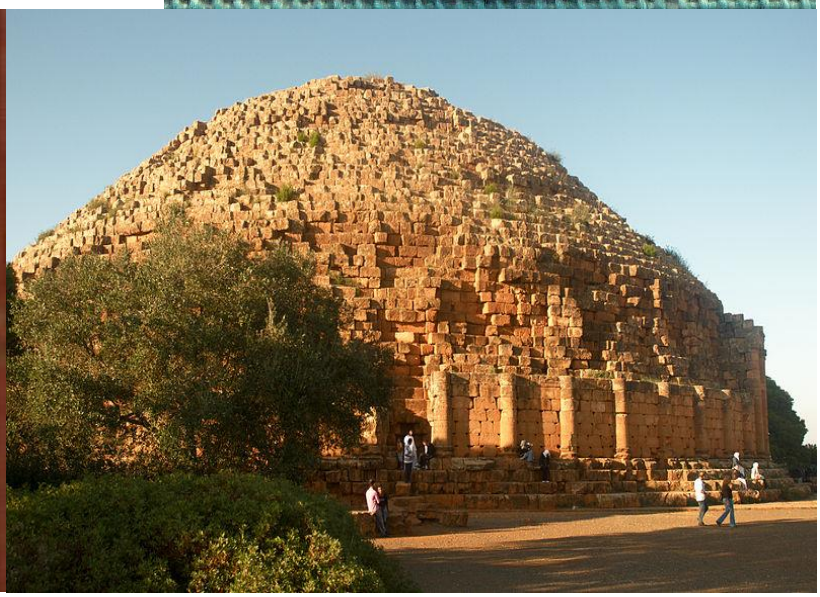

الملك يوبا الثاني وقبر الرومية (الضريح الملكي الموريطاني).

ضريح الخروب الذي اعتقد أنه قبر لماسينيسا لكن ما دليل يؤكد ذلك:

ضريح المدغاسن بولاية باتنة: يُعتقد أنه يعود لأوائل الملوك الماسيل، لكن ما دليل يؤكد ذلك، نرى بوضوح تأثير الخصائص المعمارية المصرية والبونيقية عليه.